المسيحية في الإسلام

منير غبور   أحمد عثمان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

غبور، منير

المسيحية فى الإسلام/ منير غبور، أحمد عثمان

. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩.

١٦٠ص: ٢٢ سم. ـ

تدمك: ٢ ـ ٧١٧ ـ ٤٢٠ ـ٩٧٧ ـ ٩٧٨

١ ـ الإسلام والمسيحية.

أ ـ عثمان، أحمد (مؤلف مشارك)

ب ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٦٤٢/ ٢٠٠٩

I.S.B.N _ 978 _ 977 _ 420 _ 717 _ 3

ديوى: ٢١٤,٢٧

تصميم الغلاف:

دكتورة إيناس حسن

الإشراف الفنى

علـى أبـو الخـير

صبرى عبد الواحد

المسيحية في الإسلام

منير غبور

أحمد عثمان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر
مكتب الإمام الأكبر
شيخ الأزهر

تصفحت كتاب «المسيحية في الإسلام» للأستاذ منير غبور، فوجدته كتاباً كتبه سيادته بروح طيبة، وبعناصر كريمة، هدفها التأكيد على الأخوة الإنسانية الصادقة التي تجمع بين المسلمين والمسيحيين في مصر، وهم يعيشون تحت سماء واحدة، وتظلهم أرض واحدة، ويستنشقون من هواء واحد، وتجمعهم مصالح مشتركة، ويتساوون في الحقوق والواجبات، وكل خير يأتي لمصر فهو للجميع لا فرق بين مسلم ومسيحي.

وقد ذكر سيادته شواهد متعددة للعلاقة بين المسلمين والمسيحيين، والتعاون الصادق فيما بينهم، ومن هذه الشواهد وصية النبي صلى الله عليه وسلم لأتباعه بأقباط مصر، وسماحة الإسلام في معاملة أهل الكتاب، وبشارة الراهب بحيرى، وهجرة المسلمين إلى الحبشة المسيحية، وزواج النبي صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية ...

لقد عبّر بصدق عن المشاعر التي تدل على أن الأستاذ منير عزيز
كتب هذا الكتاب بروح إنسانية طيبة، تدعو إلى توطيد
العلاقات التي تزيد من نعمة الأخوة الصادقة بين المسلمين والمسيحيين
في مصر، وهذا ما نشكره عليه كل الشكر، ونتضرع إلى الله تعالى
أن يكلله بالتوفيق والسداد، ودوام الأمان والسلام
والرخاء لمصر

شيخ الأزهر
محمد سيد طنطاوي

تقديم

عندما وصلنى كتاب "المسيحية فى الإسلام" احتفيت به حفاوة كبيرة بسبب موضوعه المهم. وكاتبه المعروف وناشره الذى هو صديق غيور على وحدة وطنه وصلابة جبهته الداخلية. فموضوع الكتاب هو واحد من موضوعات الساعة. لأنه يتصدى للعلاقة الوثيقة بين المسيحية والإسلام. وهى علاقة أكدتها الكتب المقدسة وعبر عنها الأنبياء والرسل حتى استقرت فى وجدان أهل المشرق وإن لم يتفهمها بعض أبناء الغرب ممن لم يتعمقوا فى فهم رسالة الأديان. ولم يتابعوا تجربة التعايش بين المسلمين والمسيحيين فى بلد مثل مصر. حيث ترتفع المآذن والأجراس على ضفاف النيل الخالد فى توحد وشموخ لا ينال منهما غزاة أو بغاة. وواقع الأمر إن الإسلام الذى جاء بعد المسيحية قد أعطاها قدرها الكامل واحترامها الأكيد. فالأحاديث الموثقة عن النبى "محمد" (صلى الله عليه وسلم) تؤكد هذا المعنى بعد أن جاء القرآن الكريم موضحًا الصلة القوية والاحترام المتبادل والارتباط الشديد بين المسيحيين

والمسلمين فهم أقرب الناس مودة إلى بعضهم. ذلك أن النصارى يتمتع قساوستهم ورهبانهم بالتواضع والابتعاد عن الاستكبار. وهو أمر سجله القرآن الكريم فى أكثر من موضع. كما أن تقديس القرآن للسيدة "مريم" العذراء هو مضرب الأمثال فهى التى "اصطفاها الله على نساء العالمين". كما أن مصر ذات تقاليد عريقة ضاربة فى أعماق التاريخ عرفت الوحدة الوطنية قبل غيرها. وانصهرت دماء مسلميها ومسيحييها فى كل معارك النضال الوطنى بلا تفرقة وعاش أهلها فى سلام ومحبة لاتنال منها إلا دعايات وافدة أو أفكار مستوردة. أما مصر فهى دائمًا وطن التسامح وملاذ المضطهدين وأرض السلام فى كل العصور. أما عن المؤلف "أحمد عثمان" فهو باحث مدقق ومؤرخ غير تقليدى اقتحم ميادين الفكر والكتابة. وأبلى فيهما بلاءً حسنًا فهو صاحب آراء ونظريات فى التاريخ الفرعونى وصاحب رؤية ونظرة إلى التاريخ الإسلامى. إنه عالم متميز ومثقف رفيع الشأن يعيش بجسده معظم الوقت فى العاصمة البريطانية. ولكن قلبه وعقله يعيشان فى الشرق الأوسط مهبط الديانات السماوية والدعوات الروحية. التى عرفها الإنسان منذ فجر التاريخ المكتوب عندما دعا "إخناتون" المصرى العظيم إلى التوحيد فى العبادة فى وقت كانت الدنيا تحبو حولنا فى ظلام دامس. أما الناشر صاحب فكرة هذا الكتاب فهو الداعية النشط إلى الوحدة الوطنية والتماسك القومى بين المصريين رجل الأعمال فى مجالات السياحة والثقافة والتعليم الأستاذ "منير غبور" الذى تتكرر اللقاءات بينى وبينه فى حديث متصل بين صديقين حول الشأن القبطى وهموم وحدتنا الوطنية وحياتنا اليومية .

لهذه الأسباب مجتمعة أرحب بهذا الكتاب كإضافة إيجابية للمكتبة العربية وأراه وثيقة علمية جاءت فى وقتها لتسد فراغًا فى موضوع حيوى يرتبط بمستقبل أجيالنا القادمة. ويبشر بنسيج وطنى واحد ودولة مصرية متماسكة منذ الأزل وإلى الأبد.

مصطفى الفقى

أكتوبر ٢٠٠٨

مقدمة

أود أن أؤكد أنني لست مؤلفًا أو كاتبًا أو داعية. إنما أنا مصري غيور لحاضر ومستقبل وطني الحبيب مصر. ولقد عشت وتربيت على حب هذا الوطن. لا أعرف فرقًا بيني وبين جاري أو صديقي المسلم. إلا إننا فوجئنا في السنوات الأخيرة ببعض الأصوات التي ظهرت في مصر. تخالف ما كان سائدًا في بلادنا. وتدعي أن الأقباط كفار مشركون. وخطورة هذه الدعوة أنها لم تقتصر على بعض الشباب المتطرف — من أمثال أولئك الذين سبق لهم الاعتداء على كاتبنا الكبير نجيب محفوظ — بل تعدت ذلك بكثير. حيث راح بعض من يتلوون دور الدعاة ووعاظ المساجد يرددون مثل هذه الدعوات الخاطئة. ومن المفترض أنهم يملكون العلم الصحيح بسماحة الإسلام في معاملة أهل الكتاب. هذه الأفكار الخاطئة التي ظهرت مؤخرًا في مجتمعنا. وتحولت أيضًا بعض الجماعات الدينية إلى أحزاب مغلقة لا يدخلها المستنيرون. كما تحول الاجتهاد في تفسير الدين والتعبير عن الرأي إلى زندقة

بالرغم من أن جوهر الإسلام الحقيقي يرفض التطرف والمغالاة. والتي قد تؤدي إلى حدوث خلافات واضطرابات طائفية في مصر وفتنة بين عناصر المجتمع لا مبرر لها.

كانت مصر هي أول دولة في التاريخ. قامت منذ أكثر من خمسة آلاف عام. لا تفرق بين أبنائها في المعاملة مهما اختلفت عقائدهم. وكان الفرعون الحاكم يعتبر رئيسًا لكل الديانات الموجودة في البلاد. ويتمثل هذا بوضوح في بناء معبد الكرنك بالأقصر. حيث كان يضم أقسامًا لكل العبادات الموجودة في القطرين. فمصر هي أقدم دولة ذات حكومة مركزية تكونت في التاريخ. بدأت منذ عصر الملك مينا الذي وحد القطرين حوالي ٥١٠٠ سنة. وبعد حوالي ثلاثة آلاف عام من حكم الملوك الفراعنة. سقطت مصر تحت سيطرة الرومان سنة ٣٠ قبل الميلاد. عندما دخل الإمبراطور أوكتافيوس إلى الإسكندرية منتصرًا. بعد هزيمة كليوباترا آخر ملوك البطالمة وحليفها مارك أنطونيو. في معركة أكتيوم بالساحل الغربي لليونان.

وقد تابعت باهتمام ظواهر التغيرات المتلاحقة التي تحدث هذه الأيام في مجتمعنا — التي عبرت عنها أقلام كتاب مصر على صفحات الجرائد - ومن خلال خبرة طويلة في العمل الوطني. فإنني أشعر بخطورة شديدة على وحدة وطننا من بعض من يدعون للدين الذين يريدون تحقيق أهداف وأطماع سياسية تبرأت منها كل الأديان. وأصبحت قلقًا على صورة الإسلام الحقيقية التي عرفتها وعشت مع أبنائها في هذا الوطن. وتمتاز تلك الصورة بحسن

التعامل والارتباط الطيب بالأديان السماوية التي سبقت ظهور الإسلام، وأكثرها قربًا له — المسيحية.

لهذا تملكتني فكرة نشر هذا الكتاب كمحاولة لإلقاء الضوء على العلاقة المميزة بين الإسلام والمسيحية، وخاصة في وطني الحبيب مصر.

والهدف من هذا الكتاب — الذي صاغه أحمد عثمان - هو محاولة تصحيح مسار الأجيال الحالية والقادمة، وتعريفها بحقيقة العلاقة المميزة بين المسيحية والإسلام منذ بدء النبوة المحمدية، وكيف أنهما يناديان بضرورة تربية الأجيال على المحبة والخير والسلام والانتماء الديني والوطني في أحسن صورة.

لقد عاش الأقباط المصريون حوالي ١٢ قرنًا من الزمان، في أمان تحت ظل الخلافة الإسلامية، التي عاملتهم كأهل ذمة يتمتعون بأمان الدولة وحمايتها. ومنذ أن استقل محمد علي باشا بحكم مصر عاش الأقباط في سلام جنبًا إلى جنب مع الغالبية المسلمة في مصر، مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات. وتمثلت وحدة الأمة المصرية وتلاحمها خلال ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال البريطاني، عندما هتف المصريون جميعًا بحياة الهلال مع الصليب، وارتفعت مآذن المساجد إلى جوار أجراس الكنائس للتعبير عن الإيمان العميق لأهل مصر.

فلا بد من وضع نظام جديد، بل والقيام بتأسيس حركة مراجعة لمقاومة البدع والتعبيرات الخاطئة والهرطقات، وعدم ترك الباب مفتوحًا لمن يدعون العلم بينما هم يشجعون التطرف، حتى يظل الإسلام نورًا للعالم بتعاليمه السمحة.

ورغم أن هذا الكتاب لا يحتوي على مفاهيم ومراجع جديدة. فكل ما جمع فيه موثق في الكتابات الدينية والتاريخية. وإنما أردت تذكير المجتمع بتعاليم ونصوص القرآن الكريم التي يتناساها بعض من يقومون بدور الوعظ والإرشاد في المساجد والمدارس. حيث إن الإسلام والمسيحية اشتركا في مبادئ إنسانية وأخلاقية واجتماعية واحدة. وخاصة في اتباع تعاليم سيدنا موسى عليه السلام. ومن يرجع إلى السيرة النبوية الشريفة والأحاديث الصحيحة يكتشف أن المسيحيين هم أول وأكثر الناس تشجيعًا للنبي (صلى الله عليه وسلم). فقد ساندوه وخالفوا معه. بل ومنهم أوائل من اكتشفوا نبوته وربطته بهم علاقات مصاهرة ونسب. قبل وبعد النبوة. لذلك كانت لهم عنده مكانة مميزة سجلها التاريخ.

فمن خلال هذا الكتاب أناشد الأخوة الذين يقومون بمهمة الخطابة والإرشاد والتعليم مراجعة المصادر الإسلامية في خطبهم والالتزام بتعاليمها السمحة. في مواجهة الادعاءات الباطلة.

كما أود أن أؤكد على أن هذا الكتاب لم يصدر من عقلي. وإنما صدر من قلبي. فهو دعوة إلى إبراز الدين الإسلامي السمح الذي عرفناه جميعًا من ذ الصغر.

وفقنا الله جميعًا — مسلمين وأقباطًا ـ إلى العمل معًا لخدمة بلادنا وعقيدتنا المشتركة القائمة على التوحيد بالله.

منير غبور

رئيس مجلس إدارة

جمعية إحياء التراث الوطني المصرى (نهرا)

الفصل الأول
النصارى والإسلام

نبوءة الرهبان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم

بعكس ما تقول به جماعات الإسلام السياسي في عصرنا هذا. كانت هناك علاقة وطيدة بين المسيحيين والإسلام حتى قبل بداية الدعوة المحمدية. ومن يتتبع السيرة النبوية يلاحظ وجود علاقة وثيقة بين نبوة محمد عليه الصلاة والسلام. وجماعات النصارى. الذين عاشوا في الجزيرة العربية قبل الإسلام. فبحسب ما ذكره رواة السيرة النبوية. فإن أول من تنبأ بنبوة محمد منذ صباه. كان من بين الرهبان النصارى. وهم الذين رحبوا به وبرسالته بعد نزول الوحي. فقد ورد في كتب السيرة النبوية أن أول من تنبأ بمستقبل الصبي محمد كان هو الراهب بحيرى. وبحسب رواية ابن إسحق كما وردت في سيرة ابن هشام. فقد اصطحب أبو طالب محمدًا ابن أخيه عند خروجه للتجارة إلى بلاد الشام. وكان بعد صبيًا. فلما نزل الركب في بصرى في بلاد الشام. مروا بصومعة بحيرى: "وكان إليه علم أهل النصرانية ... (و) إليه يصير علمهم عن كتاب ـ فيما يزعمون ـ يتوارثونه كابرًا عن كابر". (السيرة النبوية لابن هشام. الجزء الأول. الصفحة ١٢٩).

ورغم عدم اهتمام بحيرى بهم في سابق سفراتهم. فقد رحب بهم الراهب هذه المرة عندما شاهد الصبي محمد معهم. فأعد لهم طعامًا ودعاهم إليه جميعًا. وأصر على حضور الصبي (معهم). فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظًا شديدًا. وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته. حتى إذا فرغ القوم وتفرقوا. قام إليه بحيرى. فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى. ألا ما أخبرتني عما أسألك عنه. ... فزعموا أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: لا تسألني باللات والعزى شيئًا. ... فقال له بحيرى: فبالله ألا ما أخبرتني عما أسألك عنه. فقال له سلني عما بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله ... ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته عنده.

قال ابن إسحق: فلما فرغ أقبل (بحيرى) على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيرى: ما هو بابنك. وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا. قال (أبو طالب) فإنه ابن أخي. قال فما فعل أبوه؟ قال (أبو طالب): مات وأمه (كانت) حبلى به. قال (بحيرى): صدقت. فارجع بابن أخيك إلى بلده ... فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. فأسرع به إلى بلاده." (السيرة النبوية لابن هشام. الجزء الأول. الصفحة ١٣٠).

ولما كبر محمد وبلغ الخامسة والعشرين من عمره. خرج إلى بلاد الشام للتجارة في مال خديجة بنت خويلد. وفي طريقه إلى الشام – وكان معه ميسرة غلام خديجة - نزل محمد في ظل شجرة بالقرب من صومعة راهب آخر. تطلع الراهب إلى ميسرة. وسأله:

من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فرد ميسرة قائلا: هذا رجل من قريش من أهل الحرم (المكي). فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي..

ثم تزوج محمد وهو شاب بعد في الخامسة والعشرين من عمره، من خديجة بنت خويلد عند عودته من رحلة الشام، بعد أن عرضت هي عليه نفسها. وكان ورقة بن نوفل ابن عم خديجة نصرانيًا، وإن كانا كلاهما ينتميان إلى نفس عائلة الرسول (صلى الله عليه وسلم). إذ تنتمي خديخة وابن عمها ورقة إلى قصي، الجد الأول لقبيلة قريش، الذي هو كذلك الجد الرابع للنبي محمد عليه الصلاة والسلام.

ورقة بن نوفل بن عبد العزي بن قصي، ابن عم خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصي، زوجة النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، فقصي هو الجد الثالث لكل من ورقة وخديجة، والجد الرابع للنبي. هذا الجد الأكبر قصي هو الذي بنى الكعبة وسقفها بالخشب، كما أنه أظهر الحجر الأسود وبني مساكن مكة ونظم شئونها. ثم تولى قصي أمر الكعبة بعد طرده لخزاعة وبني بكر من مكة، وجمع القبائل المبعثرة في شعاب مكة وبطاحها في قريش. وهناك رواية تقول بأن قصي استعان ببني عذرة النصارى في إخراج خزاعة من مكة (طبقات ابن سعد، نهاية الأرب، تاريخ الطبري). بينما تذهب رواية أخرى إلى أن الروم هم الذين ساعدوه في التخلص من خزاعة عن طريق حلفائهم من الغساسنة (ابن قتيبة). وهكذا نجد علاقة

قوية بين عائلة الرسول والديانة النصرانية، منذ عهد قصي سيد قريش وجدهم الأكبر.

قال ابن إسحق: "وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزي — وكان ابن عمها نصرانيًا قد تتبع الكتب، وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب. ... فقال ورقة: لئن كان هذا حقًا يا خديجة، إن محمدا لنبي هذه الأمة". (السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الأول، الصفحة ١٧٣). وكان ورقة لا يعبد الأوثان في الجاهلية ولا يأكل من ذبائح الأصنام، وهو في هذا مثل زيد بن عمرو بن نفيل وغيره من الأحناف، قبل مجيء رسالة محمد بن عبد الله. وقد عرضت عليه اليهودية فرفضها، ولكنه ما لبث أن تنصّر.

ولما بلغ محمد بن عبد الله الأربعين من عمره جاءته الرسالة عندما جاءه جبريل، وهو عاكف في غار حراء في شهر رمضان. كان الرسول يقضي في غار حراء شهرًا من كل سنة، وكان ذلك ما تحنثت (تحنفت) به قريش قبل الإسلام. وفي ذلك الشهر من رمضان خرج محمد إلى غار حراء، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، جاءه جبريل وهو نائم حيث قرأ عليه أول السور القرآنية: (**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ • خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ • اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**). [العلق ١:٥].

وبحسب ما جاء في سيرة ابن هشام، قال الرسول: "فخرجت (من الغار) حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتًا من

السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله. وأنا جبريل. قال (محمد): فرفعت رأسي إلى السماء - أنظر. فإذا جبريل في صورة رجل صاف. قدماه في أفق السماء يقول: يا محمد. أنت رسول الله وأنا جبريل. قال (محمد): فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر. وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ... فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك. فما زلت واقفًا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي. حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي". (السيرة النبوية لابن هشام. الجزء الأول. الصفحة ١٧٣).

عاد محمد إلى بيته بعد هذه التجربة الفريدة وأخبر زوجته بما حدث. فقالت له خديجة: أبشر يا ابن العم و اثبت. ثم قامت وانطلقت إلى ورقة ابن عمها. فأخبرته بما حدث. فقال لها ورقة النصراني: والذي نفس ورقة بيده. لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس (صاحب سر الملك) ... وإنه (محمد) لنبي هذه الأمة. فرجعت خديجة وأخبرت زوجها بما قال نوفل. فذهب الرسول ليطوف بالكعبة. وهناك لحق به ورقة الذي هنأه وباركه بقبلة فوق يافوخه. وسط رأسه.

بما لا شك فيه أن ورقة بن نوفل كانت له علاقة قوية. ليس بخديجة فحسب وهي التي اطمأنت لكتبه وعلمه وعملت على مشورته. ولكن برسول الله كذلك. فكان ورقة أول من باركه وأكد له صدق رسالته. ونحن لا نعرف بشكل مؤكد طبيعة العلاقة بين الرجلين بعد البعثة المحمدية. فقد تباينت الروايات في تاريخ وفاة ورقة. فهناك رأي يقول إنه توفي في فترة الوحي الأولى. أي بعيد

"اقرأ". بفترة وجيزة - وهذه هى رواية عائشة. وهناك رأي ثان يذهب إلى أنه مات بعد فترة ليست قصيرة من ظهور الإسلام. وقول ثالث جاء في رواية الكلبي يقول بأنه خرج إلى بلاد الشام. ومات هناك. أما الرأي الرابع فهو عن الواقدي. وقد ذهب إلى أن ورقة بن نوفل عاش حتى بُعث النبي (صلى اللهً عليه وسلم) ثم خرج إلى الشام. فلما بلغه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أمر بالقتال بعد الهجرة. أقبل عائدًا يريده. لكنه قتل في الطريق قبل وصوله إلى المدينة.

هجرة المسلمين إلى الحبشة المسيحية

عندما بدأ النبي (صلى الله عليه وسلم) دعوته إلى الإسلام وقف المشركون في وجهه وحاربوه. ولم تمض بضع سنوات حتى ضيقت قريش الخناق على من تبعه من المسلمين الأوائل واضطهدتهم. أوذي أصحاب الرسول وضاقت عليهم مكة وصارت حياتهم فيها جحيمًا لا يطاق. فأخذ المسلمون يبحثون عن مكان آمن يلجئون إليه. ويتخلصون به من عذاب المشركين واضطهادهم. في تلك الفترة التي عانى فيها المسلمون. نزلت سورة الكهف التي أخبرت بقصة الفتية الذين فروا بدينهم من ظلم ملكهم. وأووا إلى كهف يحتمون به مما يراد بهم. ووجد المؤمنون في هذه القصة إرشاداً إلى الطريق. الذي ينبغي عليهم أن يسلكوه للخروج مما هم فيه. عن طريق الفرار ممن يضطهدهم إلى مكان آمن.

انطلاقًا من هذه الرؤية القرآنية أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) المسلمين المستضعفين في مكة بالهجرة بعيدًا عن قريش. فبعد خمس سنوات من بعثة النبي. عندما زادت قريش من تعذيب من تبع محمدًا من أهل مكة. طلب الرسول من أتباعه الهجرة إلى بلاد الحبشة. بعيدًا عن مكة وما يلاقونه فيها من مضايقات. فرغم أن الرسول نفسه كان في حماية عمه أبي طالب وزوجته خديجة لا يقربه أحد. لم يكن في استطاعته حماية من تبعه من المؤمنين أو منع الأذى عنهم. اختار لهم بلدًا نصرانيًا بعيدًا عن المشركين. حتى يأمن على حماية المسلمين وعدم تعرضهم للأذي في دينهم أو في حياتهم. قال الرسول لأتباعه: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد. وهى أرض صدق. حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه. ... فكانت (هذه هى) أول هجرة في الإسلام". (السيرة النبوية لابن هشام. الجزء الأول. الصفحة ٢٢٢).

والمعروف أن النجاشي ملك الحبشة كان ملكًا نصرانيًا. اطمأن الرسول إلى حسن معاملته للمسلمين وتمكنهم من الحياة والعبادة وهم آمنون تحت رعايته.

والحبشة هو الاسم الذي كان يطلق على هضبة مرتفعة شرقي إفريقيا. غربي اليمن يفصل بينهما البحر الأحمر. وهى تسمى الآن أثيوبيا وعاصمتها أديس أبابا. كانت للحبشة صلات قوية مع العرب في الأزمنة القديمة. وكان أهل الحبشة في ذلك الوقت من النصارى الذين اعتنقوا الديانة المسيحية. وتبعوا الكنيسة القبطية في الإسكندرية. والتي ما زالوا يتبعونها حتى يومنا هذا. كان فوج الذين

هاجروا يتكون من اثني عشر رجلاً و أربع نسوة. من بينهم عثمان بن عفان رضي الله عنه، وزوجته رقية بنت الرسول. تسللوا تحت جنح الظلام حتى لا تشعر بهم قريش، وخرجوا إلى البحر عن طريق جدة، فوجدوا سفينتين جاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة. ولما علمت قريش بخبر رحيلهم خرجت في إثرهم، وما وصلت إلى الشاطئ إلا وكانوا قد غادروه في طريقهم إلى الحبشة، حيث وجدوا الأمن والأمان، ولقوا الحفاوة والإكرام من ملكها النجاشي الذي كان لا يظلم عنده أحد، كما أخبر بذلك النبي (صلى الله عليه وسلم).

كان في هذه الهجرة الأولى خير للمسلمين، إذ استطاعوا الحفاظ على دينهم وأنفسهم في بلد نصراني، بعيدًا عن أذى قريش. غير أن هذه الهجرة لم تدم طويلاً، حيث رجع المسلمون إلى مكة بعد أن بلغهم أنْ قريشاً هادنت الإسلام وتركت أهله أحراراً. إلا أنهم بعد عودتهم إلى مكة وجدوا الأمر على خلاف ذلك. فاضطروا للعودة إلى الحبشة ثانية. كانت مجرد إشاعة بلغت المؤمنين وهم في الحبشة وجعلتهم يقررون العودة إلى وطنهم، وكان سبب هذه الإشاعة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) خرج إلى الحرم المكي وفيه جمع كبير من قريش، فقام فيهم وأخذ يتلو سورة النجم. فلما رتل النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا) [النجم: ٦٢]. سجد هو أولا، فلم يتمالك المشركون أنفسهم فسجدوا وراءه، فبلغ هذا الخبر مهاجري الحبشة، ولكن في صورة تختلف تماماً عن صورته الحقيقية، حيث بلغهم أن قريش أسلمت، فرجعوا إلى مكة على أمل العيش آمنين بين قومهم وأهليهم. لكنهم عندما وصلوا

قريباً من مكة عرفوا حقيقة الأمر، فرجع منهم من رجع، ومن دخل مكة دخلها مستخفيًا، أو في جوار رجل من المشركين. وزادت قريش في تعذيب هؤلاء العائدين وسائر المسلمين. فأشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى. فقرر المسلمون الهجرة مرة ثانية، وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلا ، وثماني عشرة امرأة .

ولم تستسلم قريش لما جرى، بل حاولت استعادة المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة، فأرسلت رجلين — هما عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص - إلى النجاشي، ومعهما هدايا من متاع مكة. وبعدما قدما هداياهما إلى النجاشي ملك الحبشة، كلماه قائلين: إنه ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء من عندنا، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دين النصرانية. ونحن مبعوثون من أشراف قومهم وعشائرهم حتى تردوا هؤلاء الغلمان إليهم.

غضب النجاشي من هذا الطلب، ورفض تسليم المسلمين إلا إذا أرادوا هم العودة برغبتهم. ودعى النجاشي المسلمين، فلما جاءوا إليه سألهم عن دينهم الجديد الذي تركوا بلادهم من أجله. أخبروه بأنهم كانوا يعبدون الأصنام مثل قومهم، حتى جاءهم رسول منهم دعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان. أمرهم رسولهم بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقوه وآمنوا به. ومن أجل هذا الدين يعذبهم قومهم، حتى يردوهم إلى عبادة الأوثان، ولهذا السبب تركوا قومهم وبلادهم وجاءوا إلى الحبشة هربًا من الظلم، سألهم النجاشي إذا كان معهم شيء مما جاء به رسولهم، فلما قرأ عليه

أحدهم صدرًا من (**كهيعص**) (سورة مريم). بكى النجاشي حتى اخضلت لحيته ثم قال: إن هذا (القرآن) والذي جاء به عيسى — أي التعاليم المسيحية - ليخرج من مشكاة واحدة (أي مصدر واحد). ورفض تسليم المسلمين لوفد قريش.

لكن واحدًا من مندوبي قريش، وهو عمرو بن العاص، زعم للنجاشي أن المسلمين يسيئون للمسيح، فيدعون أن عيسى ابن مريم كان عبدًا، في محاولة منه للوقيعة. عندها سأل النجاشي المهاجرين المسلمين: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ فرد أحدهم — جعفر ابن أبي طالب — قائلا: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا (صلى الله عليه وسلم). هو (المسيح) عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فضرب النجاشي إلى الأرض فأخذ منها عودًا، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود. اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي. ورد ملك الحبشة لمندوبي قريش هداياهم، فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به.

عاش المهاجرون المسلمون في بلاد الحبشة النصرانية لسنوات عديدة، ولم يعد بعضهم إلى بلاده إلا بعد هجرة النبي نفسه إلى المدينة. فقد عاد جعفر بن أبي طالب — ابن عم النبي — يوم فتح خيبر ومعه عدد كبير من المهاجرين، ففرح النبي فرحًا كبيرًا بعودته. وبينما دخل الإسلام بعض من نصارى الحبشة، فقد اعتنق بعض المهاجرين المسلمين النصرانية كذلك. خرج عبيد الله بن جحش بن رئاب الأسدي ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمًا، فلما قدم أرض الحبشة تنصر بها وفارق الإسلام ومات هنالك نصرانيًا.

وكان عبيد الله بن جحش واحدًا من الذين امتنعوا عن عبادة الأصنام قبل البعثة المحمدية. فكان إذا مر بالمسلمين من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال فتحنا وصأصأتم - أي قد أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر ولم تبصروا بعد. ولما مات عبيد الله تزوج الرسول من بعده امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان ابن حرب. (السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثالث، الصفحة ١٩٨).

كتاب النبي إلى المقوقس

ذكر ابن الحكم أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس بالإسكندرية في العام السادس للهجرة، بكتاب منه. فلما وصله حاطب، وجد المقوقس في مجلس يشرف على البحر. فلما حاذى مجلسه أشار بكتاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين إصبعيه. وبعد أن قرأ المقوقس الكتاب، قال: ما منعه إن كان نبيًا أن يدعو علي فيسلط علي! فقال حاطب: ما منع عيسى ابن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يفعل به ويفعل! ... وقال حاطب: لسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به. ثم قرأ كتاب النبي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم ويؤتيك الله أجرك مرتين. (قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ

اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)" [آل عمران: ٦٤].

فلما قرأ الكتاب، أخذه المقوقس ووضعه في حق من العاج وختم عليه، ثم دعا كاتبًا يكتب بالعربية، فكتب:

لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج من الشام، وقد أكرمت رسولك وبعث إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام.

وأخرج ابن عبد الحكم عن أبان بن صالح، قال: أرسل المقوقس إلى حاطب، ليلة وليس عنده أحد سوى ترجمان، وقال له: أخبرني عن أمور أسألك عنها ... إلام يدعو محمد؟ قال حاطب إن محمدًا يدعو إلى أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا ونخلع ما سواه، ويأمر بالصلاة. فسأله المقوقس: كم تصلون؟ قال حاطب: خمس صلوات في اليوم والليلة، وصيام رمضان وحج البيت والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميتة والدم، فسأل المقوقس: ومن أتباعه؟ فقال حاطب: الفتيان من قومه وغيرهم.

وعندما طلب المقوقس من حاطب أن يصف له الرسول، قال حاطب: في عينه حمرة قلما تفارقه، وبين كتفيه خاتم النبوة، يركب الحمار ويلبس الشملة ويجتزئ بالثمرات والكسر، لا يبالي من لاقى من عم ولا ابن عم. فقال المقوقس: كنت علمت أن نبيًا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وهناك تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج في العرب. (حسن المحاضرة، الصفحات ٩٧ – ٩٩).

زواج النبي من مارية القبطية

لم تقتصر علاقة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بالنصارى على نبوءات الرهبان والعالمين بأسرار كتبهم، فقد تزوج رسول الإسلام من امرأة مسيحية كذلك، اسمها مارية القبطية، وهى مارية بنت شمعون القبطية من كورة حفن التي أهداها إليه المقوقس، وذلك حين أرسل إليه الرسول يدعوه إلى الإسلام. وكان الإمبراطور هرقل البيزنطي قد عين المقوقس حاكمًا على مصر عام ٦٣١م، كما جعله قائدًا للجيش وأسقفًا للكنائس المصرية. اسمه "سايروس" (Cyrus)، وإن ورد اسمه في المصادر الإسلامية "جريج بن ميناء". أهداه المقوقس مع مارية أختها سيرين، وهى التى وهبها رسول الله لشاعره "حسان ابن ثابت"، فتزوجها وولدت له عبدالرحمن بن حسان. فاعتقت وصارت حرة. كما أهدى المقوقس الرسول غلامًا خصيًا اسمه مأبور وبغلة تسمى دلدل، وقدحًا من قوارير كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يشرب فيه.

لم تدخل مارية بيت النبوة، بل دخل بها الرسول بمنزل قرب المسجد كان لحارثة بن النعمان الأنصاري، كانت مارية، جميلة، وكان لها سحر خاص، مما جعل الرسول يقضي عندها أغلب أوقات فراغه، فدبت الغيرة في قلب زوجته عائشة من الفتاة القبطية. وبينما أنجبت خديجة كل أبناء الرسول في مكة قبل الهجرة، ولدت مارية إبراهيم بالمدينة سنة ثمانى من الهجرة، فصارت بولادتها حرة. وفي المسند من طريق أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين ولدت له مارية إبراهيم وقع في نفسه منه شيء، حيث اتهموا مارية

بابن عمها مأبور. حتى نزل جبريل عليه السلام . فقال له السلام عليك يا أبا إبراهيم. وسعد رسول الله. بابنه إبراهيم كثيرًا. خاصة وهو في هذا العمر المتقدم. إلا أن الطفل لم يعش طويلا. فمرض إبراهيم ومات صغيرًا قبل الفطام - وهو ابن ثمانية عشر شهرًا في سنة عشر من الهجرة. وخرج الأب. النبي. الرسول. وراء ابنه المحمول إلى البقيع. بعد أن صلى عليه. وحمله بيده. وأودعه ثرى البقيع. وحدث في ذلك اليوم أن انكسفت الشمس. فقال البعض: "إن الشمس انكسفت لموت إبراهيم". وتوفيت مارية (رضي الله عنها) سنة ستة عشر في خلافة عمربن الخطاب. وصلى عليها الخليفة ودفنها بالبقيع. وكان يحشر الناس إلى جنازتها بنفسه.

النصارى في جزيرة العرب قبل الإسلام

نشأت الديانة المسيحية – مثلها في ذلك مثل العقيدة الموسوية والديانة اليهودية والإسلام – في منطقة الشرق الأوسط العربية- في مصر وبلاد الشام - قبل أن تنتقل إلى أوروبا وباقي بلدان الإمبراطورية الرومانية. إذ كانت بلدان الشام ومصر والحبشة. تعتنق العقيدة المسيحية عندما ظهر الإسلام في جزيرة العرب في أوائل القرن السابع للميلاد. واستخدم العرب كلمة "نصراني" وجمعها "نصارى" للدلالة على أتباع عيسى عليه السلام. وتعبير نصراني هذا هو الذي نفسه المستخدم في العبرية للدلالة على المسيحي. وهو يأتي من المصدر "نصر" في اللغات السامية. وهذا يختلف عن التسمية "ناصري" الواردة في كتب العهد الجديد للدلالة على

المسيح. حيث ينسب إلى مدينة الناصرة بالجليل. وهذه التسمية تستخدم في الأناجيل لنسبة المسيح وحده إلى مدينة الناصرة. وليس لأتباعه من المسيحيين النصارى.

وإذا نظرنا إلى الاسم الذي وصف به أحبار اليهود المسيح في كتاباتهم التلمودية. لوجدناهم يتحدثون عنه باعتباره "نازارث" التي تترجم في اليونانية إلى "نازوريوس". والتي تعني "نصراني" وليس "ناصري". وهذه هي ذات الكلمة العبرية. التي تستخدم حتى الآن للدلالة على المسيحيين. بل إن كتابات العهد الجديد نفسها تتحدث عن المسيح على أنه نصراني. فقد كانت هناك طائفة دينية في فلسطين عند بداية القرن الأول. تعرف باسم النصارى.

وأول ما وردت كلمة "نصارى" في الكتابات المسيحية. كانت في كتاب أعمال الرسل من العهد الجديد للكتاب المقدس في الآية ٢٤:٥. فقد خاطبت جماعة من اليهود فيلكس – الحاكم الروماني- متهمين بولس الرسول بإثارة الفتنة بينهم. فوصفوه على أنه رئيس طائفة النصارى. والكلمة الموجودة في الأصل اليوناني هي "نازورايوس" (Nazaraios) أي "نصراني". ولم يعرف أتباع عيسى بالمسيحيين إلا منذ العام ٥٠ للميلاد. فقد ورد في أعمال الرسل ١١:٢٦. "دعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولا". وهناك آية في القرآن الكريم تؤكد هذه المعنى: " **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ**

فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) [آلصف: ١٤]. فكلمة نصاري هنا تعني أنصار الله الذين هم أنصار المسيح.

نصارى نجران

بعد هجرة الرسول إلى المدينة، جاء وفد من نصارى نجران لزيارته هناك، ستون راكبًا فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم من بينهم عبد المسيح، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم، وأبو حارثة ابن علقمة، أسقفهم وحبرهم وهو عالم مجتهد في دين النصارى. ويتحدث ابن هشام عن زيارة وفد من نصارى نجران للرسول بعد هجرته إلى المدينة. قال ابن إسحق: وقدم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفد من نصارى نجران، ستون راكبًا فيهم أربعة عشر من أشرافهم. ... وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، قال لما قدموا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية في جمال رجال بني الحارث بن كعب . قال يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) يومئذ ما رأينا وفدًا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصلون فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دعوهم فصلوا إلى المشرق .

قال ابن إسحق: "فكانت تسمية الأربعة عشر الذين يئول إليهم أمرهم العاقب وهو عبد المسيح والسيد وهو الأيهم . وأبو حارثة بن علقمة أخو بني بكر بن وائل . وأوس والحارث وزيد وقيس.

ويزيد ونبيه وخويلد وعمرو، وخالد وعبد الله ويحنس في ستين راكبًا . فكلم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منهم أبا حارثة بن علقمة، والعاقب عبد المسيح والأيهم السيد - وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف من أمرهم يقولون هو الله ويقولون هو ولد الله ويقولون هو ثالث ثلاثة، وكذلك قول النصرانية. فهم يحتجون في قولهم "هو الله" بأنه كان يحيي الموتى، ويبرئ الأسقام. ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا، وذلك كله بأمرالله تبارك وتعالى: (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ) [مريم:٢١] ويحتجون في قولهم " إنه ولد (الله)" بأنهم يقولون لم يكن له أب يُعلم وقد تكلم في المهد وهذا لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله.ويحتجون في قولهم "إنه ثالث ثلاثة" بقول الله فعلنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا. فيقولون لو كان واحدًا ما قال إلا فعلت وقضيت، وأمرت، وخلقت : ولكنه هو وعيسى ومريم. ففي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن - فلما كلمه الحبران . قال لهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسلما: قالا : قد أسلمنا : قال إنكما لم تسلما (فأسلما): قالا : بلى قد أسلمنا قبلك : قال كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدًا، وعبادتكما الصليب قالا: فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت عنهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم يجبهما."(السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثاني، الصفحتين ١٠٧ و١٠٨).

وفي تلك الفترة نزلت سورة آل عمران التي ورد بها ذكر المسيح عيسى وأمه مريم بنت عمران، فدعاهم الرسول وأبلغهم بالرواية

القرآنية. "فقالوا له: يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه. فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب (أميرهم) ... فقالوا: يا عبد المسيح، ماذا ترى؟ فقال: والله أيا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدًا لنبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم (المسيح). ... فإن كنتم قد أبيتم إلا ألف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم. فأتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا. ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا فإن لكم عندنا رضا".(السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثاني، الصفحة ١١٣).

يدل هذا اللقاء بين رسول الإسلام ونصارى نجران على تسامح الرسول (صلى الله عليه وسلم) واحترامه لحرية العقيدة، فقد جاء الإسلام ليؤكد السنن الإلهية في الحرية والتسامح جميعاً، وليس أدل على ذلك من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد سمح للنصارى بإقامة صلاتهم في مسجده.

الدعوة المحمدية بين الروحانية والهداية والسياسة

الإسلام هو الدين الذي أتى به النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)، والذي آمن به الصحابة أولا ثم قبلته الشعوب العربية طواعية بعد ذلك، وليس هناك دليل واحد على أن رسول الإسلام لجأ إلى القتل والإرهاب لنشر دعوته. فما نعرفه عنه في صباه وشبابه

يدل على أنه كان يؤثر العزلة والتأمل. وليس هناك رواية واحدة تدل على عراك وقع بينه وبين آخرين. كما أن الدعوة الإسلامية التي بشر بها محمد عند بلوغه الأربعين. لم تكن تتعلق بإعادة تنظيم المجتمع أو توزيع الثروة أو تغيير المسئولين عن الحكم في مكة. وإنما تدور حول إدراك وجود خالق واحد هو رب الكون. ليس له صنم ولا تدركه الأبصار.

كما تضمنت الدعوة الإسلامية - منذ بدايتها - الاعتقاد بخلود الروح وقيامة الموتى والحساب في الآخرة وهو ما يتفق فيه الإسلام مع المسيحية . وكان الرسول هو ومن شهد بنبوته من العزلة يتلون القرآن ويقيمون الصلاة ويصومون شهر رمضان ويؤتون الزكاة. كما قاموا بالحج عندما سمحت لهم قريش بذلك. ولم يكن محمد هو الذي يشهر السلاح في وجه خصومه من قريش- لا لإجبارهم على قبول دعوته ولا حتى للدفاع عن نفسه وعن أتباعه في مواجهة كل أنواع الإهانة والاضطهاد التي تعرضوا لها. ومن يقرأ قصة حياة محمد يجد أنها قصة رجل عانى الكثير من أنواع الظلم والاضطهاد في حياته. إلا أنه لم يحاول الرد عليها بالمثل. وإنما تحمل الأذى في صبر وإصرار وهاجر من موطنه إلى أن تبين للجميع صدق دعوته.

وقد جاء في كتاب السيرة النبوية لابن هشام المتوفي بمصر سنة ٢١٣ هجرية. أن الرسول لما بادى قومه بالإسلام. ناكروه وأجمعوا على عداوته إلا أن عمه أبو طالب قام دونه فلم يسلمه لهم وتولى حمايته. فمشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب وقالوا له: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا. فإما أن تكفه عنا

و إما أن تخلي بيننا وبينه. إلا أن أبا طالب لم يستجب لطلب أشراف قريش واكتفى بردهم بعد أن قال لهم قولا رفيقا. ففكرت قريش في نشر الإشاعات ضد النبي وإساءة سمعته حتى يبتعد عنه الناس ولا يصدقون دعوته .

ورغم هذا فإن دعوة محمد لم تضعف بل ازدادت في الانتشار بين أفراد القبائل. فقرر خصومه عندئذ محاولة إرهاب المؤمنين واللجوء إلى العنف لمعاقبة كل من تبع الرسول: "فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين. فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش. وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر. من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم. فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه. ومنهم من يصلب لهم, ويعصمه الله منهم". فلما رأى الرسول ما يصيب أصحابه من البلاء نصحهم بالخروج إلى أرض الحبشة وكان فيها ملك مسيحي لا يظلم عنده أحد. فخرج عند ذلك ثلاثة وثمانون رجلا من المسلمين من أصحاب رسول الله إلى الحبشة وكانت هذه أول هجرة في الإسلام. ورغم الحماية التي وجدها محمد من عمه أبى طالب وقومه من بني هاشم وبني المطلب.فإن أشراف قريش راحوا يهزمونه ويستهزءون به ويخاصمونه. ومنهم عمه أبو لهب بن عبد المطلب وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية.

وتطور الأمر بعد ذلك عندما توفيت خديجة بنت خويلد زوجة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومات عمه أبو طالب في عام واحد, وتتابعت المصائب على الرسول (صلى الله عليه وسلم) منذ ذلك الوقت. واعترضه أحد سفهاء قريش ونثر على رأسه ترابا. فدخل

محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته وجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي على الإهانة التي لحقت بوالدها. ثم خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحيدا إلى الطائف يلتمس النصرة من قبيلة ثقيف وحمايته من قومه. وبدلا من أن ينصروه راح أشراف ثقيف يغرون به سفهاءهم وعبيدهم. يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط فجلس في ظل شجرة للعنب يحتمي بها من مطارديه. ويقول ابن هشام إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عند ذلك تضرع إلى الله قائلا: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين". لم يطلب محمد (صلى الله عليه وسلم) سلاحاً يقاتل به خصومه، وإنما طلب الرحمة التي تساعده على تحمل الإساءة والاستمرار في دعوته، ذلك أن المؤمن في ضعفه يكون قويا بعقيدته . وهو ليس في حاجة إلى قتل خصومه والتخلص منهم، بل إلى إقناعهم بصحة قضيته.

وعاد النبي (صلى الله عليه وسلم)إلى مكة وصبر على الأذى الذي لحق به، واثقا من أن النصر سيكون حليفه في النهاية. وبالفعل في خلال السنوات الثلاث التالية انتشرت الدعوة المحمدية بين عدد كبير من أفراد القبائل الأخرى غير قريش، وخاصة من بين خزرج المدينة الذين لقوه عند العقبة. وبدأ المسلمون الذين يعانون من الاضطهاد في موطنهم بمكة، يتركون بيوتهم ويتخلون عن أموالهم ويهاجرون إلى المدينة التي استقبلتهم بالترحاب. ولما رأت

قريش أن أتباع الرسول يتزايدون عددا رغم كل ما وضعوه أمامهم من عقبات. و أن نفوذه راح يتعاظم بين القبائل. أدركوا ضرورة وضع حد لنشاطه الذي بات يهدد مركزهم الخاص بين العرب. فاجتمعوا في دار الندوة — وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرا إلا فيها — للتشاور فيما هم صانعون في أمر الرسول. فتشاوروا ثم قال واحد منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا. فاعترض آخر قائلا: لئن حبستموه ليخرجن أمره إلى أصحابه فيثبون عليكم وينزعوه من أيديكم. ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم. واقترح شخص ثان إخراج محمد من مكة ونفيه في مكان بعيد. إلا أن هذا الرأي لم يحز قبولا كذلك بسبب ما تبين لهم من تمكنه عندئذ من نشر دعوته بين القبائل الأخرى. مما يجعله أعظم خطرا عليهم. وفي النهاية اقترح أبو جهل بن هشام أن يختاروا فتى من كل قبيلة ويعطوا كلا منهم سيفا. فيسير الفتيان إليه في منزله ويضربوه ضربة رجل واحد ويقتلوه. ويستريحون منه ويضيع دمه بين القبائل. فحاز هذا الاقتراح على موافقة الجميع.

وعلم النبي (صلى الله عليه وسلم) بما أضمره له أهل قريش من شر فاضطر إلى ترك بيته وموطنه. وهاجر إلى المدينة وتبعه فتيان قريش بعد أن أيقنوا من فراره من بين أيديهم. وبحثوا عنه في كل طريق ليقتلوه. ولكنه وصل بسلام إلى أنصاره المنتظرين بالمدينة. وهنا بين المهاجرين والأنصار أصبح الرسول (صلى الله عليه وسلم) إماما لأول أمة مسلمة لا تتعرض للإيذاء والإرهاب من أحد. إلا أنه لما كانت قريش قد استولت على أموال المسلمين الذين اضطروا إلى

مغادرة منازلهم والهجرة إلى المدينة. كان من الطبيعي أن يحاول الرسول استعادة ما فقدوه من ممتلكات. وهكذا كانت غزوة بدر لما سمع الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن أبا سفيان مقبلا من الشام ومعه الكثير من الغنائم. فطلب من المسلمين الخروج إليه للحصول على تعويض لما فقدوه. فمن المؤكد أن هذه الغزوة لم تكن تهدف إلى إجبار قريش على قبول الإسلام دينا لها. وإنما قصدت الاستيلاء على بعض مال قريش تعويضا للمهاجرين عما فقدوه من أموالهم وممتلكاتهم. وتوالت بعد ذلك الحروب والمعارك بين المسلمين وبين قريش إلى أن كان صلح الحديبية بينهم. وتم الاتفاق على أنه من أحب أن يدخل في عقد الرسول فلا يدخل ومن أحب أن يدخل في عقد قريش فليدخل. وواضح من هذا أن المسلمين حتى بعد أن نالوا حق الدعوة بحرية إلى دينهم. لم يفرضوا هذا الدين على الآخرين وإنما سمحوا لهم كذلك بحرية الدعوة إلى عقائدهم. فدخلت بنو بكر في عقد قريش ودخلت خزاعة في عقد الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وهكذا فنحن نرى أن الإسلام الذي دعى إليه النبى (صلى الله عليه وسلم) كان دينا وعقيدة. ولم يكن حزبا يهدف إلى الاستيلاء على مقاليد الحكم في البلاد. كما أن الوسيلة التي استخدمها محمد في دعوته لم تكن هي الإجبار أو التهديد أو استخدام السلاح. وإنما هي الإقناع بالأدلة الروحية والعقلية. وحتى

بعد أن واجه المسلمون العديد من أنواع الإهانة والتعذيب – بل والقتل – فإن الدعوة الإسلامية لم تلجأ إلى الإرهاب سلاحا لها في الدفاع عن نفسها .

إن القرآن الكريم قد ذكر فى كثير من آياته، بالنسبة للنبى (صلى الله عليه وسلم) بصفة خاصة أن رسالته كانت للناس جميعاً وأن دعوته لهم كانت قائمة على وجوب إخلاص العبادة لله – تعالى وحده وعلى التحلى بمكارم الأخلاق، عن طريق القول الحكيم، والتوجيه السديد وتقوم على الحكمة والموعظة الحسنة، ولم تقم فى يوم من الأيام على الإكراه أو الإجبار أو السيف... والمتأمل فى هذة الآيات يراها تأمر النبى (صلى الله عليه وسلم) بوجوب التزام الدعوة الى الحق بالقول الطيب . وبالإرشاد القويم وبالسلوك الحميد. ومن هذة الآيات القرآنية – سبحانه (**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ**) [البقرة: ١١٩]، وبقوله – عز وجل : (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً • وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً**) [الأحزاب: ٤٥،٤٦].

الإسلام والعلم والإيمان

من أهم المشكلات التى نعانى منها الآن هى صورة الإسلام أمام العالم أجمع وأيضاً أمام أنفسنا، فنحن نشعر أن هناك حملات من العالم الغربى للإساءة إلى الإسلام فنثور ونقوم بالمقاطعة أو بالمظاهرات التى تصل إلى حد أعمال العنف أحياناً ، ولكننا نفتقد

رد الفعل الهادئ القوى المؤثر فى الوقت نفسه الذى يستطيع أن يرد الصاع صاعين وأن يغير فكر هؤلاء الذين لايعرفون عن الإسلام شيئاً سوى الصور المغلوطة التى تقدم لهم عن طريق وسائل الاعلام الموجهه والمأجورة احياناً أو عن طريق من يدّعون الإسلام مثل المنظمات التى تشوه صورة الإسلام.

وأن تلك المشكلة التى نعانى منها الآن ترجع إلى الحالة الفكرية التى نعيشها منذ فترة حكم العثمانيين لمعظم الدول العربية. فقد تأثرت الشعوب العربية بحالة الجمود الفكري التي سادت في أنحاء الدولة العثمانية. فبعد أن كان حكام الدولة الإسلامية يتبارون في جمع الكتب وتجميع رجال الأدب والفكر في مجالسهم في دمشق وبغداد والفسطاط وفي مدن الأندلس. أصبحت قاعات الحريم ومجالس العبيد والخصيان هي المقر الرئيسي لسلاطين آل عثمان الذين تبعوا سليمان الأول. فالطبيعة الفكرية للدولة العثمانية نفسها هي التي منعت الدولة الإسلامية من المشاركة في عصر النهضة التي شهدتها أوروبا منذ القرن الخامس عشر. فقد اتجهت الدولة العثمانية إلى التحفظ الفكري. وبينما كانت الغالبية العظمى من المواطنين من الأميين الذين لا يعرفون القراءة والكتابة. لم تكن هناك عوامل لتشجيع أي باحث لمحاولة طرح فكرة جديدة وأصبحت الحياة الثقافية في سبات عميق. ولم ينتعش في هذه الظروف إلا نشاط الأغاوات والمجاذيب والدراويش الذين انتشروا في أنحاء الإمبراطورية. عندما كانت الصوفية الغيبية هي النشاط

الفكري الوحيد.

وفجأة وجدت الأمة العربية نفسها في حالة من الضياع عندما انهارت الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى في بداية القرن العشرين. فبعد ثلاثة عشر قرنًا من حكم الدولة الإسلامية. وجدت القوميات المحلية نفسها مستقلة وعليها أن تختار نظامًا سياسيًا خاصًا بها. وبينما فضلت بعض الدول استخدام قواعد الشريعة الإسلامية لتسيير دفة أمورها. لجأ البعض الآخر إلى الاعتماد على قواعد القوانين الأوروبية في الأمور المدنية والتجارية والجنائية – شرط ألا تتعارض مع العقائد الإسلامية – مع تطبيق قوانين الشريعة على حالات الزواج والميراث. وبينما هناك خلاف في طبيعة النظم الغربية ونظم البلدان الإسلامية. إلا أن انهيار الحواجز في العصر الحديث أمام التعاملات التجارية. وسهولة التنقل بين الدول وإتاحة وسائل الاتصال والإعلام. أدى إلى نشوء نظم متشابهة في مجالات عديدة من النشاطات والمعاملات.

وعلى الجانب الآخر تقوم الحضارة الغربية الحديثة على أساس من الفصل بين السلطة الدينية والسلطة السياسية. نتيجة لانتشار مبادئ الثورة الفرنسية التي تمت في أواخر القرن الثامن عشر. فقبل الثورة الفرنسية كانت الكنيسة الكاثوليكية تتحكم في سلوك الأفراد كما كانت المجتمعات تتكون من طبقات وطوائف مغلقة لا يسمح لأحد بالخروج منها. حتى الوظائف كانت شبه وراثية. وكان القرن الثامن عشر هو عصر التنوير في الفكر الأوروبي المعاصر. وكانت فرنسا هي مركز الفكر التنويري الذي اعتمد على

نتائج التجارب العلمية في إنجلترا وألمانيا. وكان يهدف إلى تحرير الفرد من سلطة الكنيسة والحكومة والطوائف. وقد أدى انتشار التعليم - على أثر ظهور المطابع منذ القرن الخامس عشر- وازدهار الثقافة بتأثير مدارس عصر النهضة في إيطاليا في ذات الوقت. إلى تطور في حقل المعرفة العلمية أدى بدوره إلى ظهور الفلسفة الأوروبية الحديثة.

وهكذا نرى أنه بينما كانت مشكلة الشعوب الأوروبية هي معاناتها من الاضطهاد السياسي الذي تفرضه عليها السلطة الدينية التي حرمتها من كل أنواع المعارف العلمية والفكرية, فإن مشكلتنا نحن هي تخليص الفكر الديني من السيطرة السياسية. فنحن في حاجة إلى إعادة الفقهاء إلى كتبهم وإطلاق حقهم في تفسير القواعد القانونية القديمة بما يتفق مع التطورات الحديثة في تركيب المجتمع الإسلامي وعلاقاته. ويتناسب مع ما وصلت إليه العلوم والتكنولوجيا في عصرنا الحالي. وإذا كان الإجماع من أهم مصادر القانون الشرعي, فكيف يتحقق الإجماع في عصرنا هذا دون فتح باب الاجتهاد أمام رجال الفقه. وبعد أن ضاعت معظم ثرواتنا في الحروب والصراعات. حان الوقت كي نبني أوطاننا على أساس من الأمن والطمأنينة. وأن نلجأ إلى النقاش والحوار لحل خلافاتنا مع الآخرين.

ونستشهد هنا بما قاله الاستاذ/ صلاح منتصر فى جريدة

الاهرام يوم ٢٧/ سبتمبر٢٠٠٦"أنه إذا كان الإسلام بالنسبة للمسلمين أساسه القرآن والسنة , إلا أنه بالنسبة لغير المسلمين فإنه الممارسة والسلوك الإسلامى هما الوجه الذى يرون الاسلام منه. وهو ما يصدق عليه القول الحق " لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" .

الفصل الثانى
المسيح فى القرآن

تتفق رواية ولادة عيسى عليه السلام في القرآن مع ما ورد بأناجيل العهد الجديد بشكل عام، وإن اختلفت في بعض النقاط. وبينما رفض اليهود اعتباريسوع مسيحًا لهم، فقد قبل القرآن عيسى مسيحًا للمسلمين. وإن لم يقبل بعقيدة الثالوث – الأب والابن والروح القدس، ثلاثة في واحد – كما لم يقبل ادعاء البعض من بني إسرائيل بقتله وصلبه. وليس هناك شك في الاعتقاد بوحدانية الله لدى المسيحيين بشكل عام، فالثالوث لديهم إنما يدل على ثلاثة مظاهر لذات واحدة. فهي لا تدل على التعددية ولكنها جميعًا تدل على ذات إلهية واحدة. فبخلاف عقيدة الثالوث لدى المصريين القدماء التي تشير إلى ثلاث شخصيات مختلفة، الأب (أوزوريس) والأم (إيزيس) والابن (حورس). يدل الثالوث المسيحي على قدسية واحدة. وهناك من يفسر الثالوث المسيحي بنفس طريقة المصريين القدماء على أنها تمثل: الرب ومريم وعيسى، ولكن هذا التفسير يخالف التعاليم المسيحية المتفق عليها.

الدور الرئيسي ليسوع (عيسى) في الأناجيل هو أنه رسول من الرب جاء كنور للأمم "أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة"(يوحنا ٨: ١٢) ومخلص (مفتدى). الذي يتألم ويقدم كأضحية مثل الحمل لفداء خطايا أمته. هو يقول:" أنا هو الراعي الصالح الذي بذل نفسه (فدية) عن الخراف" (يوحنا ١٠: ١١) وقد جاء في الإصحاح الأول من إنجيل لوقا أن الرب: " **أرسل جبريل الملاك من الله ... إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داوود اسمه يوسف. واسم العذراء مريم. فدخل إليها الملاك وقال سلام لك أيتها المنعم عليها. الرب معك. مباركة أنت في النساء. فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية. فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله. وها أنت ستحبلين وتلدين ابنًا وتسمينه يسوع. هذا يكون عظيمًا وابن العلي يدعى. ويعطيه الرب الإله كرسي داوود أبيه. ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية**" (الآيات ٢٦-٣٣).

ويخبرنا القرآن بأن عيسى ولد من مريم العذراء التي لم يمسها رجل، بعد أن نفخ الله فيه من روحه. فالمسيح – بحسب رواية القرآن - هو الإنسان الوحيد الذي ولد من روح الله: **﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾** [التحريم: ١٢]. ويتحدث القرآن دوائمًا عن عيسى بوصفه "ابن مريم". ويصف بشارة الملائكة بمعجزة مولده

منِ العذراء في سورة آل عمران بقوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾. [الآية: ٤٥].

ألقاب عيسى في القرآن

يصف القرآن الكريم المسيح بأنه (كلمة من الله) [آل عمران:٤٥]. و(وَكَلِمَتُهُ) (أي كلمة الله) [آالنساء:١٧١] وأنه (وَرُوحٌ مِّنْهُ) (أي روح من الله) [آالنساء:١٧١]. ويقول القرآن إن الله أيده (بِرُوحِ الْقُدُسِ)[آالبقرة٨٧و٢٥٣والمائدة١١٠]. ويذكر القرآن كذلك أن الله سبحانه وتعالى أتى عيسى (الْبَيِّنَاتِ) [آالبقرة٨٧و٢٥٣] (الإِنجِيلَ) [الحديد ٢٧]. وجعله (مُبَارَكاً) أينما كان [مريم ٣١]. كما يذكر القرآن الكريم للمسيح القيام بأعمال إعجازية لا يقدر عليها البشر (الآية ٤٩ من سورة آل عمران والآية ١١٠ من سورة المائدة).

قصة المسيح كما وردت في أناجيل العهد الجديد تقول بأن يسوع (عيسى) ولد في بيت لحم في عهد الملك هيرودس، الذي حكم فلسطين أربعين عامًا انتهت بوفاته في العام الرابع السابق للتقويم الميلادي. ثم هربت السيدة مريم بابنها إلى مصرعقب ولادته خوفًا عليه من بطش الملك، الذي أمر بقتل كل الأطفال في بيت لحم، وكانت النبوءات قد دلته على مكان وزمان ميلاد المسيح الذي سيطالب بعرش داوود، ولم ترجع الأم وولدها من مصر إلى فلسطين إلا بعد موت الملك هيرودس، حيث ذهبت بالطفل لتعيش في بلدة الناصرة في الجليل بشمال فلسطين.

ويقول الإنجيل إنه بعد أن كبر الصبي وأصبح في الثلاثين من عمره، ذهب إلى وادي الأردن حيث التقى بيوحنا المعمدان الذي عمده بالماء في وسط النهر. وبعد هذا اعتكف يسوع في خلوة أربعين يومًا صائمًا في الصحراء، حيث دخل في صراع مع الشيطان الذي حاول إغراءه بملك العالم. وعاد المسيح - بعد أن فشل الشيطان في مهمته - إلى الجليل ليختار حوارييه الاثنى عشر ويبدأ دعوته التى حملت تعاليم غاية في السمو فشملت الدعوة إلى محبة الناس جميعاً حتى الأعداء وهو صاحب المقولات الشهيرة منها "من منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر أولاً" , "أحبوا أعداءكم" " كما تريدون أن يفعل الناس بكم هكذا افعلوا أنتم أيضاً بهم". مما أثار حقد الكهنة الصدوقيين اليهود والأحبار الفريسيين عليه. وازداد غضب الكهنة على المسيح - بحسب كلام الأناجيل - عندما جاء إلى مدينة القدس قبل عيد الفصح، ودخل المعبد وصار يبشر فيه بدعوته متحديًا إياهم. فتآمروا عليه وأرسلوا حرسًا للقبض عليه - بمساعدة يهوذا الإسخريوطي الحواري الذي خانه - وكان يستريح مع تلاميذه عند جبل الزيتون بشمال المدينة.

واستمر التحقيق والمحاكمة أمام مجلس الكهنة برئاسة "قيافا" الكاهن الأكبرطوال الليل. وبعد انتهاء المحاكمة عند الصباح، أخذ الكهنة المسيح إلى بيلاطس البنطي الوالي الروماني على فلسطين، الذي أعاد محاكمته. وحاول بيلاطس الإفراج عن عيسى بمناسبة عيد الفصح؛ حيث لم يجد مبررًا لعقابه وغسل يديه تبرءًا من مسئولية صلبه، ولكن رؤساء الكهنة حرضوا الجموع

على المطالبة بصلب المسيح فخضع الوالي لرغبتهم. وتنتهي القصة الإنجيلية بقيامة المسيح من بين الأموات في اليوم الثالث. حيث اختفى جسده من المقبرة التي وضع بها. ثم ظهر هو لحوارييه وحثهم على نشر التعاليم المسيحية بين الأمم. وبعد أربعين يومًا صعد إلى السماء.

يحتوي الكتاب المقدس على جزأين: العهد القديم، الذي يتضمن توراة موسى إلى جانب الكتابات التاريخية وكتب الأنبياء والمزامير. والعهد الجديد الذي يحتوي على الأناجيل وكتاب أعمال الرسل – من أتباع المسيح – ورسائل الرسل إلى الكنائس الأولى. وخاصة رسائل القديس بولس. كان المسيحيون هم الذين جمعوا أجزاء الكتاب المقدس وقننوه. فلم يكن اليهود من قبل يهتمون سوى بكتابات موسى وتفسيرات التلمود. وكلمة إنجيل تعني البشرى بميلاد المسيح. كتبها المبشرون بالمسيح. ورغم وجود العديد من الأناجيل في بداية التاريخ الميلادي. فقد رفضت كنيسة روما غالبيتها وتم تحريمها باعتبارها هرطقة. ويحتوي العهد الجديد من الكتاب المقدس على أربعة أناجيل فقط منسوبة إلى متى ومُرقص ولوقا ويوحنا.

المسيح المخلص الذي يفدي البشر

من المعروف أن اليهود رفضوا اعتبار يسوع مسيحًا لهم عند ظهوره. وهم حتى الآن لا يزالون في انتظار مجيء مسيحهم. وكلمة "المسيح" لم تكن موجودة في اللغات السامية. ولم يعرفها أبناء إسرائيل في المراحل الأولى من تاريخهم. وإنما هي كلمة مصرية الأصل. فقد كان المصريون وحدهم من بين الشعوب القديمة هم

الذين يقومون بدهان الملك بالزيوت والعطورعند تنصيبه وجلوسه على العرش. كما كانوا يدهنونه بزبدة التمساح وهى عادة لا تزال موجودة في بلاد النوبة حتى وقتنا هذا - بسبب اعتقادهم بأن هذا العمل سيجلب للمدهون سلالة قوية. وكان الملك الجديد. بسبب عملية الدهان هذه. يتلقى لقب "مسيح" من بين ألقابه. ذلك أن التمساح بالمصرية القديمة كان يسمى "مسح" وكان اللقب الملكي يكتب باستعمال تمساحين لينطق "مسيح". حتى الكلمة الدالة على عملية الدهان بالزيوت "مسح" اشتقت من اسم التمساح المصري. وعلى هذا كانت كلمة مسيح عند بدايتها تعني "الملك". وكانت لقبًا يطلق على كل الملوك المصريين. ثم بدأ كتبة العهد القديم من العبرانيين يستخدمون هذه الكلمة للدلالة على ملوك بني إسرائيل. بداية من شاؤول وداوود عند القرن العاشر قبل الميلاد.

ولم يرتبط لقب "المسيح" بدور "المخلص"- أي الذي يعد الناس بقيامة الأموات والحياة الأبدية في مملكة الرب - إلا بعد أن رفض بنو إسرائيل الاعتراف بأن يسوع هو "مسيحهم". بمعنى ملكهم. فمنذ أن آمن أتباع يسوع بقيامته من بين الأموات. أصبحت كلمة "مسيح" تعني المخلص. أي الذي يعد بالحياة الأبدية. وفكرة "الخلاص" هذه هي الحلم الذي ظل يداعب الإنسان منذ القدم. ومحور الخلاص وهو الاعتقاد بخلود الروح واستمرار الحياة بعد الموت.

لم تكن فكرة الخلاص والأبدية في بدايتها مرتبطة بشخصية المسيح المخلص. وإنما كان "المسيح" هو أحد ألقاب الملوك القدماء. ولم يرد أي ذكر ليوم القيامة والحياة بعد الموت في التعاليم الموسوية التي وصلتنا. التي اكتفت بالحديث عن وحدانية الرب. وعلى هذا

فقد أنكرت يهودية الكهنة قيامة الأموات. وكان اليهود ينتظرون قدوم مسيحهم على أنه "الملك الممسوح" الذي سينصرهم على أعدائهم ويجعلهم شعب الله المختار. فيحكمون الأمم تحت قيادته. وفي العبرية يستخدم التعبير "هاميليخ هامشيخ" (الملك الممسوح) للدلالة على المسيح الذي ينتظره اليهود. الذي يكون من سلالة داوود. ويتكون الجوهر الرئيسي للعقيدة المسيحية على أساس بعث الموتى في نهاية الأيام — يوم القيامة — والحساب. الذي يعني الثواب والعقاب. وبينما تقوم العقيدة اليهودية على وحدانية الرب ورفض الشرك ورفض عبادة الأصنام كما جاء في التعاليم الموسوية. فهي لا تعرف شيئًا عن الروح أو البعث في الآخرة. وربما كان السبب الرئيسي لرفض القبائل اليهودية في المدينة قبول رسالة محمد. هو قبوله بمسيحية عيسى وبقيام الموتى والحساب.

المسيح كلمة الله وروح منه

كما جاء في سورة النساء (**إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَ"كَلِمَتُهُ"** (المسيح نفسه كلمة الله) "**أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ**" (الله نفسه الذي ألقاها) "**إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ "وَرُوحٌ مِّنْهُ** " (أي روح من الله) "**فَآمِنُوا" بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ**). (الآية ١٧١). ومن الواضح من هذه الآية السابقة أن المسيح عيسى ابن مريم — هو نفسه — رسول الله وكلمته .

كما جاء في سورة آل عمران: (**إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ**

يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) [آل عمران ٤٥].

فالمسيح في القرآن هو "كلمة من الله" و"روح من الله". لكنه "ليس ابنًا لله" ولا هو "ثالث ثلاثة". كما أنه "المسيح" وهو كذلك "رسول الله". وقد ورد ذكر "كلمة الله" في القرآن للدلالة على القرآن نفسه. حيث تقول الآية ١٥٨ من سورة الأعراف: **(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ** (أي القرآن)). وورد كذلك بنفس هذا المعنى في الآية ٧٥ من سورة البقرة: **(كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ** (أي القرآن) **ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ)**. كما تتحدث الآية ١٠٢ من سورة النحل عن نزول القرآن الكريم فتقول: **(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ)**. كما جاء في إنجيل يوحنا. (الإصحاح الأول – الآية ١) **"في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله"**.

لكن بعض المفسرين ذهبوا إلى أن المقصود من "كلمة الله" هنا ليس له علاقة بالروح الإلهية. وإنما هي تدل على شخص الملاك جبريل. فقد ورد في تفسير ابن كثير: كلمته ألقاها إلى مريم، أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم. ويعتبر هذا التفسير أن الملاك جبريل. هو المقصود هنا بروح الله. وهوالذي نفخ في مريم. وهذا يتعارض صراحة مع نص الآيات القرآنية التي تقول: **(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ** (روح من؟ روح الله وكلمة من؟ كلمة الله) **أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ** (الله سبحانه وتعالى هو نفسه الذي ألقاها) **وَرُوحٌ مِّنْهُ** (أي روح من الله) (سورة النساء ١٧١). إذ قالت الملائكة لمريم – وجبريل واحد من الملائكة

- إن الله يبشرك بكلمة منه – هى المسيح عيسى.

فسرالإمام الرازي كلمة "روح منه" بقوله :"إنه روح لله لأنه واهب الحياة للعالم في أديانهم". وفسرها الإمام البيضاوي بقوله: "مي (المسيح) روحًا؛ لأنه كان يحيي الأموات وقلوب البشر". بينما يقول القرآن عن آدم عليه السلام (سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي) (الحجر ٢٩).

كما جاء بالقرآن: (وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ). (البقرة – الآية ٢٥٣) وعن أيدناه بروح القدس جاء في تفسير ابن هشام أن الروح القدس هو الاسم الأعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع ابن أنس: القدس هو الرب تبارك وتعالى. وقال الزمخشري" بروح القدس " بالروح المقدسة". كما قال " وروح منه " فوصفه بالاختصاص والتقريب: لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام.

معجزات المسيح

من معجزات السيد المسيح إبراء المرضى كالعمى والعرج وإخراج الشياطين وإحياء الموتى بل والخلق كما جاء فى القرآن الكريم : (إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ

وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي) [المائدة: ١١٠].

المسيح هو عبد الله

من أَهم الأَلقاب التي عرف بها عيسى في القرآن الكريم لقب "عبد الله". فهذا هو اللقب الأَول للمخلص (المفتدي) الذي تحدثت عنه أَنبياء بني إِسرائيل. والذي تعرف عليه المسيحيون في يسوع. عيسى ابن مريم. وقد ورد في القرآن الكريم عنه: **"لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله"**. وقد تحدث النبي إشعيا. الذي عاش في النصف الثاني للقرن الثامن قبل الميلاد. في فصل عن "العبد". عن العذاب الذي لاقاه المسيح: **"هو ذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي. وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم" (إشعيا ٤٢:١) "فقال قليل أن تكون لي عبدًا لإقامة أسباط يعقوب ورد محفوظي إسرائيل. فقد جعلتك نورًا للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض" (إشعيا ٤٩:٦). "كلنا كغنم ضللنا. ملنا كل واحد إلي طريقه. والرب وضع عليه إثم جميعنا. ظلم (هو) أما هو فتذلل ولم يفتح فاه كشاه تساق إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه. من الضغطة ومن الدينونة أخذ. وفي جيله من كان يظن أنه قطع من أرض الأحياء. أنه ضرب من أجل ذنب شعبي. وجعل مع الأشرار قبره ومع غني عند موته. على أنه لم يعمل ظلمًا ولم يكن في فمه غش. أما الرب فسربأن يسحقه بالحزن. إن جعل نفسه ذبيحة للأمم يرى**

نسلا تطول أيامه ومسرة الرب بيده. من تعب نفسه يرى ويشبع. وعبدي البار بمعرفته يبرر كثيرين وآثامهم هو يحملها" (إشعيا ٥٣: ٦-١١).

كما جاء لقب "عبد" في التوراة للدلالة على نبي أو ملك. وتم استخدام لقب "مختاري" الذي استعمل هنا بالنسبة للمخلص. كذلك لكل من موسى وداوود. وهكذا نرى أن عبد الرب – أو عبد الله كانت له مكانة خاصة في الكتب المقدسة. فهو – بحسب ألقابه – ينتمي إلى عرش الملك والنبوة كليهما. كما أن تعبير "وضعت عليه روحي" هنا. يشبه وصف عيسى في القرآن "روح منه (الله)".

الفصل الثالث
الكنيسة القبطية
أول كنيسة فى العالم

يرجع تاريخ الكنيسة المسيحية في مدينة الإسكندرية إلى حوالي عام ٤٢ ميلادية، بحسب ما جاء في أول كتاب عن تاريخ المسيحية الذي كتبه يوسيبيوس أسقف قيصرية على الساحل الفلسطيني في منتصف القرن الرابع، وكذلك روايات الأقباط المصريين أنفسهم. وتجمع هذه الروايات على أن القديس مرقص— الذي كتب أقدم أناجيل العهد الجديد — هو الذي أصبح أول أساقفة كنيسة الإسكندرية، في وقت لم تكن فيه كنيسة روما قد أنشئت بعد على تعاليم بطرس الرسول. ومنذ بداية نشأتها تعرضت الكنيسة المصرية لموجات متتالية من اضطهاد الرومان لها، سواء عندما كانت روما لا تزال وثنية أم بعد أن تحولت إلى المسيحية. ومن يتابع تاريخ العلاقة بين الرومان والمصريين لا بد وأن يلاحظ وجود مشروع روماني مستمر، يهدف إلى تحطيم البنية الحضارية للشعب المصري. فلم تنس روما أن المصريين خرجوا يهددون عتباتهم في أوروبا، وهم القوة الوحيدة التي تجرأت على تحدي سلطتها ومحاولة وقف زحفها إلى الشرق. وبالرغم من هزيمة مصر وانتصار روما، ظلت الإسكندرية هى عاصمة الثقافة والعلم والدين في جميع أنحاء الإمبراطورية، بينما كانت روما هى العاصمة السياسية.

وقعت مصر تحت الحكم الروماني على أثر دمار الأسطول المصري في ميناء أكتيوم على الساحل الغربي لبلاد اليونان. عام ٣١ قبل الميلاد. إذ خرج القائد مارك أنطونيو وملكته كليوباترا على رأس الأسطول المصري لمباغتة الجيش الروماني بقيادة أكتافيوس بالقرب من الساحل الإيطالي. بهدف إخضاع روما إلى سلطة الإسكندرية. ولكن أكتافيوس علم بالخطة المصرية وعرف موقع الخليج. الذي اختبأ فيه الأسطول المصري. وبدلا من مفاجأة المصريين له فاجأهم هو في مخبئهم ودمر أسطولهم. غيرت هذه المعركة مجرى التاريخ وتركت الطريق مفتوحًا أمام جيوش روما لتفرض سيطرتها على الإسكندرية. ودخل أكتافيوس أغسطس العاصمة المصرية ليجد أن أنطونيو قد أنهى حياته منتحرًا. وتبعته إلى نفس المصير كليوباترا آخر ملوك العائلة البطلمية.

اعتبر أكتافيوس قيصر أن أرض مصر صارت ملكًا له شخصيًا وليست ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية. وتبعه في هذا باقي الأباطرة. وعين الإمبراطور حاكمًا يدير أمور مصر يكون مقره بالإسكندرية. كان هم الإمبراطور الوحيد هو جمع الضرائب التي كانت تتمثل في كمية هائلة من الحبوب يتم تصديرها إلى روما كل عام. ووضع الرومان ثلاث حاميات عسكرية في مصر في البداية. خفضوها بعد ذلك إلى اثنتين. تتكون كل منها من ٦ آلاف رجل.

وكان المصريون يسمون أقباطًا (أوقبطًا) في العربية – إيجيبتوس – في اللغة اليونانية. حتى قبل اعتناقهم للديانة المسيحية. فقد استخدم الكتاب اليونان القدامى كلمة قبطي وأقباط للتعبير عن سكان مصر وشعبها. وكلمة Copt الإنجليزية

مأخوذة عن الكلمة اليونانية Aiguptions وهى شكل الصفة للاسم Aiguptia أي مصر. ومن المفهوم أن Eiguptia هى بدورها مأخوذة عن اسم مدينة منف في مصر القديمة ها-كا-بتاح أي مقر روح بتاح. الكلمة التي استخدمها اليونانيون للدلالة على مصر كلها. ومن الناحية الأخرى. بينما استخدم العهد القديم من الكتاب المقدس الكلمة العبرية "مصرايم" للدلالة على بلادنا. استخدم القرآن كلمة مصر. ومع هذا فقد أطلق المؤرخون العرب الأوائل على المصريين كلمة "قبط". وهى الكلمة التي صارت الآن ذات دلالة دينية وليست قومية.

اضطهاد الرومان للأقباط - عيد الشهداء

وأول عملية رسمية قامت بها السلطات الرومانية لاضطهاد الأقباط المصريين وقعت أيام حكم الإمبراطور ديسيوس الذي حكم روما ٢٤٩-٢٥١. وفرض القسم على أقباط مصر بأنهم قاموا بتقديم القرابين للآلهة الوثنية. حتى ينفوا عن أنفسهم تهمة اعتناق العقيدة المسيحية. واستمرت عمليات اضطهاد الأقباط حتى بلغت أوجها في فترة حكم الإمبراطور دقلديانوس. الذي أصبحت بداية حكمه عام ٢٨٤ بداية للتقويم القبطي. من كثرة عدد الشهداء الذين قتلوا في أيام هذا الإمبراطور. وأصدر الأقباط في هذه السنة تقويمهم المعروف باسم تقويم الشهداء – والذي يحتفل به حتى الآن في عيد النيروز وهو رأس السنة القبطية – وكان البابا ثاؤنا السادس عشر أحد أساقفة الإسكندرية في ذلك الوقت.

ثم تحولت الدولة الرومانية إلى المسيحية عام ٣١٣. عندما أصدر الإمبراطور قسطنطين إعلان ميلانو الذي ينص فيه على أن المسيحية أصبحت هي الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية. ومنذ ذلك التاريخ زاد الصراع بين الرومان والمصريين. إذ أراد أساقفة روما انتزاع قيادة العالم المسيحي من أساقفة الإسكندرية، حتى تصبح روما هي العاصمة السياسية والدينية كذلك. ومنح الإمبراطور سلطات واسعة للأساقفة الرومان. فأصبح لهم الحق في استخدام سلطة الشرطة والجيش في فرض تعاليمهم على من يخالفهم، في أي مكان من الإمبراطورية. وفي عام ٣٢٥ أنشأ الإمبراطور قسطنطين جماعة كنسية مسكونية – عامة – هدفها محاربة ما تعتقد كنيسة روما أنه يمثل عقائد هرطوقية، أي لا تتفق مع تعاليمها. وانتهى بهم الأمر إلى إرسال الأسقف ثيوفيلوس إلى الإسكندرية، وهو الذي قام في عام ٣٩١ بحرق معبد السرابيوم حتى يصبح فاتيكان روما هو قبلة المسيحية الوحيدة. وتبع ذلك عمليات تفتيش واسعة بجميع أنحاء الدولة المصرية، بحثًا عن أية كتابات لدى الأقباط المصريين تعارض تعاليم كنيسة روما. وهذه هي الفترة التي قام فيها بعض الرهبان البخوميين في صعيد مصر، بإخفاء مخطوطات نجع حمادي داخل زلعة وضعوها في أحد الكهوف المخصصة لدفن الموتى، والتي تم العثور عليها مخباة داخل زلعة وتتضمن ١٢ مخطوطًا بها حوالي ٥٢ نصًا قبطيًا.

وانتهى حكم روما على مصر عند موت الإمبراطور ثيودوسيوس الأول عام ٣٩٥، بعد أربع سنوات من حرق معبد السرابيوم. وانتقلت

مصر بعد ذلك إلى سلطة الدولة البيزنطية الجديدة وعاصمتها القسطنطينية. واستمر الوضع كذلك حتى عام ٦٤١. عندما وصل إليها عمرو بن العاص. فمنذ أن تم بناء مدينة القسطنطينية عام ٣٣٠ لتكون عاصمة القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية. انفردت العاصمة الجديدة بأخذ الضرائب المفروضة على المصريين – والتي بلغت ٣٠٠ مليون أردب من القمح – لنفسها. وحرمت روما منها.

كانت العلاقة سيئة بين أقباط مصر وحكام بيزنطة منذ البداية. إلا أنها ازدادت سوءًا بعد انعقاد في مؤتمر نيكايا الثاني لممثلي الكنائس عام ٤٤٩. إذ تقرر في هذه المؤتمر فرض عقيدة ثنائية وجود السيد المسيح باعتبارها العقيدة الصحيحة. واعتبار من يخالفها من الهراطقة. ولما كانت الكنيسة القبطية المصرية لا توافق على ثنائية شخصية المسيح فقد اتهمتها روما والقسطنطينية بالهرطقة. ولهذا قررالمصريون الانسحاب كلية من مجامع الكنائس العالمية منذ ذلك التاريخ. وفي محاولة منهم لفرض عقيدة الرومان على المصريين. قامت القسطنطينية بفرض سيطرتها على كنيسة القديس مرقص بالإسكندرية. وعينت أسقفًا من لديها للإشراف عليها. إلا أن هذا لم يفلح في إخضاع الأقباط الذين أقاموا كنيستهم للقديس مرقص خارج الإسكندرية. واختاروا لها أسقفًا مصريًا. فأصبح هناك فرعان للكنيسة المرقصية. وبدأت السلطات البيزنطية سلسلة من عمليات الاضطهاد ضد أقباط مصر بهدف إجبارهم على قبول العقيدة الرومانية. استمرت

حوالي قرنين من الزمان حتى مجيء عمرو بن العاص إلى مصر. وعين الإمبراطورالبيزنطي رجلا واحدًا هو أبوليناريوس — المعروف في المصادر الإسلامية باسم المقوقس - ليكون حاكمًا على مصر وقائدًا للجيش وأسقفًا للإسكندرية. حتى يمنحه سلطات كاملة لفرض عقيدة روما على شعب مصر. ورفض أقباط مصر الحكم العسكري للكنيسة واختاروا أسقفًا لهم من بينهم. إلا أنه اضطر للانتقال سرًا بين أديرة الصحراء حتى لا يلقي البيزنطيون القبض عليه. وزاد الحاكم الجديد الضرائب على المصريين الذين أساء ممثلو السلطة معاملتهم في جميع المناسبات ما بين ٤٥١ و٦٤١.

الفصل الرابع
النصارى والدولة الإسلامية

وصول عمرو بن العاص إلى مصر

لما تم للمسلمين فتح بلاد الشام وفلسطين اتجهت أنظارهم إلى مصر. وأول من فكر في فتح مصر كان عمرو بن العاص، أحد قادة فتوحات الشام، وهو رجل قصير القامة عريض المنكبين ناتئ الجبهة واسع الفم ، له لحية كبيرة، ضخم الكفين والقدمين. كان عمرو قد زار مصر عدة مرات للتجارة قبل الإسلام، وتعرف على مدى كثرة خيراتها وثرواتها. فلما قدم الخليفة عمربن الخطاب إلى الجابية في بلاد الشام سنة ٦٣٩ للميلاد، عرض عليه عمرو فكرته بينما كان ابن الخطاب في طريقه إلى فلسطين، ليتسلم مدينة القدس صلحًا، بعد أن أصر بطريرك المدينة المقدسة على حضور الخليفة ليتسلمها بنفسه. تردد ابن الخطاب في قبول فكرة غزو مصر في بادئ الأمر، خوفاً على العرب من أن يصيبهم الإرهاق من كثرة الحروب المتواصلة. غير أن عمرو لم يزل به يحاول إقناعه ويؤكد له سبل النجاح والنصر، حتى رضي أمير المؤمنين، وأذن له بالسير إلى مصر سنة ٦٣٩، وكانت تخضع في تلك الحقبة للإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية.

أقدم المصادر العربية التي تحدثت عن فتح العرب لمصر هي كتاب "فتوح مصر وأخبارها". لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم. الذي توفي في مدينة الفسطاط بمصر سنة ٨٧١ للميلاد. يقول ابن الحكم: "لما قدم عمر بن الخطاب للجابية (بالقرب من دمشق) قام إليه عمرو. فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين. أتأذن لي أن أسير إلى مصر. وحضه عليها وقال: إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم. وهي أكثر الأرض أموالا وأعجزها عن القتال والحرب. فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك. فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمربن الخطاب ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن لذلك عمر. فعقد له على أربعة آلاف رجل ... فقال له عمر: سر وأنا مستخير الله في مسيرك. وسيأتيك كتابي سريعًا إن شاء الله. فإذا أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها فانصرف. وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره.

فسار عمرو بن العاص في جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس. واستخار (الخليفة) عمر بن الخطاب الله. فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك. فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين. فأدرك الكتاب عمرًا وهو برفح (على حدود مصر) فتخوف بن العاص إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف ... فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه. وسار كما هو حتى نزل قرية بين رفح والعريش فسأل عنها فقيل (له) إنها من مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين. فقال عمرو لمن معه:

ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟ فقالوا: بلى. وهكذا تحايل ابن العاص فلم يقرأ خطاب الخليفة إلا بعد تأكده من الوصول إلى مصر، حتى لا يضطر إلى العدول عن غزوه للبلاد.

بدأ ابن عبد الحكم كتابه عن فتح مصر بفصل تمهيدي يذكر فيه بعض فضائل مصر وكل ما قيل عن مصر في القرآن الكريم والأحاديث النبوية وفى القصص وأقوال السابقين من إعزاز وتقدير لأرض مصر، كما ذكر أقوال واحد من كبارالصحابة وهوعبدالله بن عمروبن العاص فاتح مصر. ومن أقواله عن أرض مصر **"من أراد أن ينظر إلى الفردوس أوينظر إلى مثلها في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها تنور ثمارها". وكان يقول عن النيل إنه "نهر ينبع من الجنة". وعن أهل مصر "قبط مصر أفضل الأعاجم كلها وأسمحهم يداً وأفضلهم عنصراً وأقربهم رحمًا بالعرب عامة وبقريش خاصة"** (فتوح مصروأخبارها، صفحة ٥) وأعاجم تعني الذين لا يتكلمون اللغة العربية حين ذاك، وكان عبد الله بن عمرو يعبر عن علاقة الرابطة الوثيقة التي ينظر بها المصريون إلى أرضهم فهي أرض كالجنة. **الكتاب المقدس في سفر التكوين يقول "كانت جميلة كجنة الرب كأرض مصر".**

معارك عمرو مع الروم

خرج عمرو بن العاص من "قيسارية" بالشام على رأس قوة صغيرة تبلغ نحو أربعة آلاف جندي في أواخر سنة ٦٣٩ للميلاد، حتى وصل إلى العريش التي قضى بها عيد الأضحى بعد أن دخلها بدون مقاومة؛ حيث لم تكن بها حامية عسكرية للدفاع عنها.

ثم سار عمروغربًا بعيدًا عن البحر المتوسط. في طريق كان يسلكه الجنود والمسافرون منذ أقدم العصور. حتى وصل إلى مدينة "الفرما". وهي ميناء فرعونية قديمة تقع على بعد ٣٥ كم شرقي مدينة القنطرة عند قرية بالوظة القديمة. لها حصون قوية. وكان لها ميناء يطل على البحر المتوسط. كما كان يصل إليها جدول ماء من نهر النيل. اضطر المسلمون إلى حصارالفرما حوالي الشهر حتى فتحت أبوابها في ٢ من يناير ٦٤٠. واتفق المؤرخون العرب على أن القبط المصريين ساعدوا العرب في تحقيق هذا النصر. قال جمال الدين أبو المحاسن بن تغري في كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: "أقبل عمرو حتى إذا كان بالعريش. فكان أول موضع قوتل فيه (هو) الفرما. قاتلته الروم قتالا شديدًا نحو شهر. ثم فتح الله على يديه". ثم سار عمروبعد ذلك إلى مدينة بلبيس بشرقي الدلتا. فوصلها في ١٦ من يناير ٦٤٠ وحاصرها شهرًا كاملا - وكان فيها أرطبون الروم الذي فر من فلسطين قبيل تسليم بيت المقدس - وتمكن من فتحها بعد قتال عنيف مع القوات البيزنطية. أصبح الطريق بعد ذلك ممهدًا لعمرو لكي يصل إلى رأس الدلتا وحصن بابليون. حيث تجمعت قوات الروم الرئيسية.

واصل عمرو بن العاص مسيرته حتى بلغ قرية "تندونياس"التي أطلق عليها العرب اسم "أم دنين" ثم باتت بعد ذلك تعرف باسم "المقس". وهي قرية كانت تقع على النيل شمال حصن بابليون. وموقعها الحالي في قلب القاهرة عند حديقة الأزبكية وما حولها. وكان النيل يومئذ يمر بهذا المكان. عندئذ أدرك الروم خطورة

موقفهم فتجمعوا في حصن بابليون لتنظيم الدفاع. وسرعان ما نشب القتال بين الفريقين. لكنه لم يكن حاسمًا. وكان الروم يستغلون اتصال حصن بابليون بحامية "أم دنين" عن طريق النيل فيشنون غارات سريعة على العرب. الذين لم تكن قواتهم من الضخامة بحيث تتحمل خسائر متلاحقة. وبدلا من التوجه نحو حصن بابليون. سار عمرو بن العاص غربًا فعبر النيل. ثم اتجه جنوبًا ناحية منخفض الفيوم. واستدار شمالا ليهاجم الحصن من الجنوب. لكنه فوجئ أن الروم قد أرسلوا إمدادات ضخمة لمصر. فلزمْ عمرو صحراء الفيوم ولم يبرحها. وأرسل إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يطلب منه المدد.

طلب عمرو النجدة من الخليفة في المدينة. فبعث إليه ابن الخطاب أربعة آلاف مقاتل وصلوا في يونيو ٦٤٠. ومعهم كتاب يقول فيه: "قد أمددتك بأربعة آلاف. فيهم أربعة رجال. الواحد منهم بألف رجل". وكان هؤلاء الأربعة هم: الزبير بن العوام. وعبادة بن الصامت. ومسلمة بن مخلد. والمقداد بن الأسود. وصل المقاتلون الجدد إلى مدينة عين شمس فتشجع عمرووسار بجيشه بعيدًا عن حصن بابليون لملاقاتهم. وخرجت جيوش الروم في عشرين ألف رجل بقيادة تيودور لقطع الطريق عليه في السهل الواقع بين الحصن ومدينة عين شمس. لكن عمرو أقام كمينًا للروم وقسم جيشه إلى ثلاث وحدات. أرسل وحدة منها في جنح الظلام للاختباء في قرية أم دنين في الغرب. ووحدة ثانية تسربت إلى الجبل الأحمر شرقي العباسية ولاقاهم هو بالوحدة الثالثة. بدأت المعركة بين الطرفين

في يوليو ٦٤٠ وعندما اشتد القتال. انقضت الكتيبة المختبئة عند الجبل بقيادة خارجة بن حذافة على مؤخرة الروم فأخذتهم المفاجأة وتملكهم الفزع والرعب. فولوا هاربين نحو قرية "أم دنين" حيث كان في انتظارهم الكتيبة الأخرى. فأحاطت بهم وحلت بهم الهزيمة وفر الناجون منهم للاختباء في حصن بابليون.

معركة بابليون

بعد وصول الإمدادات تمكنت الجيوش العربية من السيطرة على المنطقة الشمالية لحصن بابليون الذي كانت مساحته تبلغ حوالي ستين فدانًا. في منطقة مصرالقديمة الحالية بالقاهرة. حاصر عمرو جيوش الروم المحتمية داخل الحصن واستمر الحصار لسبعة أشهر. بسبب مناعة أسوار الحصن. وتمكن "المقوقس" - الحاكم الذي عينه قيصر البيزنطيين على مصر – من الهرب خارج حصن بابليون إلى جزيرة الروضة. ثم أرسل من هناك إلى عمرو يطلب المفاوضة والصلح مع المسلمين. فبعث إليه ابن العاص وفدًا من المفاوضين على رأسه عبادة بن الصامت الذي خير الروم بين دفع الجزية أو الاحتكام إلى القتال. فأصر الروم على مواصلة القتال.

حاول المقوقس أن يعقد صلحًا مع عمرو بعد أن تيقن من عدم قدرته على الصمود. ووافق على دفع الجزية للمسلمين. وكتب شروط الصلح وأرسلها إلى هرقل إمبراطور الروم للموافقة عليها. ثم سافر الحاكم الروماني إلى العاصمة في الإسكندرية. وقد أورد أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي.

وهو أول مؤرخي مصر بعد الفتح الإسلامي. في كتابه فتوح مصر وأخبارها. تفاصيل الاتفاق التي تضمنت الموافقة على أنه: "من أراد الخروج منها (الإسكندرية) إلى أرض الروم خرج. وعلى أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل. فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم. وإلا كانوا جميعًا على ما كانوا عليه. وكتبوا به (الاتفاق) كتابًا. وكتب المقوقس إلى ملك الروم كتابًا يعلمه على وجه الأمر كله. فكتب إليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل. ويقول في كتابه: إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفًا. وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى. فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم علينا. فإن عندك بمصر من الروم بالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف. معهم العدة والقوة. والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم. ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط أذلاء. ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليه. فإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة. فناهضهم القتال ولا يكون لك رأي غير ذلك. ... فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم ... اعلموا معشر الروم. والله إني لا أخرج مما دخلت فيه ولا صالحت العرب عليه ... ثم أقبل المقوقس إلى عمرو بن العاص فقال إن الملك قد كره ما فعلت ... وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم. ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسي. والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه ... وأنا أطلب إليك أن تعطيني ثلاث خصال. قال له عمرو: ما هن؟ قال: لا تنقض بالقبط وأدخلني معهم وألزمني

ما لزمهم ... وأما الثانية. إن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم. ... وأما الثالثة. أطلب إليك إن مت أن تأمرهم (أن) يدفنوني في (منطقة) أبي يتحنس بالإسكندرية. فأنعم له عمرو بن العاص بذاك. وأجابه إلى ما طلب على أن يضمنوا له الجسرين (لعبور نهر النيل) جميعًا ففعلوا ... وصارت لهم القبط أعوانًا ... ويقال (في رواية أخرى) إن المقوقس إنما صالح عمرو ابن العاص على الروم وهو محاصر في الإسكندرية".

بعد رفض الإمبراطور للتفاهم. استأنف المسلمون القتال وشددوا الحصار على بابليون. وفي تلك الأثناء وردت الأنباء بوفاة الإمبراطور هرقل. . يقول ابن الحكم: "فلما أبطأ الفتح على عمرو ابن العاص. قال الزبير إني أهب نفسي لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين. فوضع سلمًا إلى جانب الحصن من ناحية الحمام ثم صعد ... فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن (و) معه السيف. وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفًا من أن ينكسر ... فلما اقتحم الزبير وتبعه وكبر وكبر من معه ... لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعًا فهربوا. فعهد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه. واقتحم المسلمون الحصن. فلما خاف المقوقس على نفسه ومن معه فحينئذ سأل عمرو بن العاص الصلح. ودعاه إليه على أن يفرض العرب على القبط دينارين على كل رجل منهم. فأجابه عمرو على ذلك ... وكان مكثهم على باب القصر (بابليون) حتى فتحوه سبعة أشهر ... ". ولم تكد شمس يوم ١٦ إبريل ٦٤١ تشرق حتى كان قائد الحصن يعرض الصلح على

عمرو ومغادرة الحصن فأجابهم عمرو بن العاص للصلح.

الاستيلاء على الإسكندرية

بعد سقوط الحصن الرئيسي للروم في بابليون، اتجه ابن العاص إلى الإسكندرية، التي حاصرها لعدة أشهر تم بعدها الاتفاق مع السلطات البيزنطية على تسليم المدينة بدون قتال في ٨ نوفمبر ٦٤١، ورحيل الرعايا البيزنطيين عنها. يقول ابن الحكم: "حاصروا الإسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك، وفتحت يوم الجمعة لمستهل محرم سنة عشرين (للهجرة) فلما هزم الله تبارك وتعالى الروم وفتح الإسكندرية ... وهرب الروم في البر والبحر، خلف عمرو بن العاص بالإسكندرية ألف رجل من أصحابه، ومضى عمرو ومن معه في طلب من هرب من الروم في البر، فرجع من كان هرب من الروم في البحر إلى الإسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم، وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعًا، ففتحها وأقام بها وكتب إلى عمر بن الخطاب إن الله قد فتح علينا الإسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد". يقول ابن الحكم: "فاجتمعوا على عهد بينهم على أن يفرض على كل نفس (من المصريين) شريفهم ووضيعهم - من بلغ الحلم منهم — ليس على الشيخ والفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، وأن لهم أرضهم وأموالهم

لا يعرض لهم في شيء منها. فشرط هذا كله على القبط خاصة، وحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليه الديناران ... فكان جميع من أحصي يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها ... أكثر من ستة آلاف، ألف (٦ ملايين) نفس. فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف (١٢ مليونًا) كل سنة".

دخل عمرو بن العاص الإسكندرية في ٦٤٢ وكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له المدينة فقال: أما بعد فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها. غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك. واثنيعشر بقالا يبيعون البقل الأخضر. كما كان بالإسكندرية فيما أحصي من الحمامات، اثنا عشر ديماسًا أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس، كل مجلس منها يسع جماعة نفر. وكان عدة من بالإسكندرية من الروم مائتي ألف من الرجال. فالتحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن، وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار، فحمل فيها ثلاثون ألفًا مع قدروا عليه من المال والمتاع والأهل. وبقى من بقى من الأساري ممن بلغ الخراج فأحصى يومئذ ألف. سوى النساء والصبيان. (فتوح مصر وأخبارها، صفحة ٨٢) وأراد عمرو بن العاص البقاء في الإسكندرية التي كانت عاصمة مصر منذ بداية حكم البطالمة، قبل حوالي تسع قرون، فسأل ابن الخطاب : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ ولما كان الجواب بنعم، كتب إلى عمرو: إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم. فتحول عمرو من الإسكندرية إلى الفسطاط.

ولكن بعد مدة قصيرة من السيطرة على الإسكندرية قام البيزنطيون بهجوم مضاد ليستعيدوا المدينة من جديد. إلا أن عمرو استطاع هزيمتهم هذه المرة كذلك. وعاد إلى الإسكندرية مرة أخرى في صيف سنة ٦٤٦. فرحب به أقباط المدينة.

دارت كل هذه المعارك بين القوات العربية الغازية من ناحية وحاميات الروم التي كانت تحتل مصر من ناحية أخرى. ولم يكن للقبط المصريين دور في هذا النزاع. بل كانوا يتمنون الهزيمة للروم البيزنطيين الذين أساءوا معاملتهم وأذاقوهم ألوان الاضطهاد وأرهقوهم بالضرائب الكثيرة. بعد هذا قام المسلمون بنقل عاصمة مصر من الإسكندرية إلى الفسطاط بالقرب من حصن بابليون. وفي نحو عامين أصبحت مصر كلها جزءًا من الإمبراطورية الإسلامية. وأعلن العرب ضمانهم لحرية العقيدة لأهل الكتاب من المسيحيين واليهود. وبعد ذهاب البيزنطيين جاءوا بالأسقف القبطي بنيامين الأول من مخبئه. وسلموا إليه كنائس الإسكندرية.

يقول الدكتور قاسم عبده قاسم في كتابه عن: " في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية دولة المماليك": "بعد انتصار المسلمين استقدم عمرو بين العاص بنيامين وأمنه. فأخذ ذلك البطريرك- الذي قضى شطرًا كبيرًا من حياته في نضال ضد البيزنطيين أعداء الأقباط المذهبيين – يعمل بلا كلل لتقوية الكنيسة اليعقوبية. ويعيد تأسيس الأديرة والكنائس التي هدمت قبل الفتح الإسلامي. كما أرسل مطرانًا جديدًا إلى الحبشة. وكانت آخر أعماله تأسيس

كنيسة جديدة للقديس مكاريوس في وادي النطرون." (ص ٢٩)
وتابع الدكتورعبده قاسم في نفس الكتاب: "وثمة أحاديث كثيرة منسوبة (صلى الله عليه وسلم) إلى الرسول توصي بالقبط خيرًا عند فتح مصر؛ لأن لهم ذمة ورحمًا. وأن منهم أخوال العرب. وأنهم سيعينون المسلمين عند فتحهم البلاد وما إلى ذلك. ومهما كان نصيب هذه الأحاديث من الصحة فإن تأثيرها ظهر في تصرفات المسلمين أثناء الفتح وبعده تجاه أهل البلاد حينذاك. ويؤكد ذلك ما جاء في خطبة لعمرو بن العاص غداة الفتح مخاطبًا جنوده: ... واستوصوا بمن جاورتموهم من القبط خيرًا". (ص ٣٠)

وبحسب ما أورده ابن الحكم في كتابه عن فتوح مصر وأخبارها "كان عدة من بالإسكندرية من الروم مائتي ألف من الرجال. فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن. وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار. فحمل فيها ثلاثون ألفًا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل. وبقى من الأساري بمن بلغ الخراج. فأحصي يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان. فاختلف الناس (من العرب المسلمين) على عمرو في قسمهم (أي طالبوا بتوزيع الغنائم بينهم). وكان أكثر الناس يريدون قسمها. فقال عمرو: لا أقدر على قسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين. فكتب إليه يعلمه بفتحها وشأنها. ويعلمه أن المسلمين طلبوا قسمها. فكتب إليه عمر: لا تقسمها وذرهم، يكون خراجهم فيها للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم. فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج. فكانت مصر صلحًا كلها بفريضة دينارين على كل رجل ... إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض الزراعية. إلا الإسكندرية

فإنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يؤى من وليهم. لأن الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد. ولم يكن لهم صلح ولا ذمة. وقد كانت (بعض) قرى من قرى مصر ... قاتلت (إلى جانب الروم). فسبوا (سبى العرب) منها قرية يقال لها بلهيب (أو بلهيت) وقرية يقال لها النحيس وقرية يقال لها سلطيس. فوقع سباياهم (أي صاروا عبيدًا) بالمدينة (الإسكندرية) وغيرها. فردهم عمر بن الخطاب إلى قراهم (حررهم من العبودية وضرب عليهم الخراج) وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة." والجزية هى مبلغ من المال يتم فرضه كضريبة على غير المسلمين من الأفراد وتسقط بالإسلام. أما الخراج فيتم تقريره على الأرض - وليس على الرءوس - ولا يسقط بالإسلام.

ولما استقر الأمر للعرب في حكم مصر "كان عمرو يبعث إلى عمر بن الخطاب بالجزية. بعد حبس ما كان يحتاج إليه. وكانت فريضة مصر ... لحفر خلجها (ترعها) و إقامة جسورها. وبناء قناطرها وقطع جزائرها. مائة ألف وعشرون ألفًا ... ثم كتب عمر بن الخطاب ... أن يختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص. ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الأكف عرضًا. ولا يضربون الجزية إلا على من عليه المواسي (المواشي) ولا يضربون على النساء ولا على الولدان. ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم. ... وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر. أقر قبطها على جباية الروم وكانت جبايتهم بالتعديل إذا عمرت القرية وكثر أهلها. زيد عليهم. وإن قل أهلها وخربت. نقصوا." ولكن بعد مرور فترة من الزمن

واعتناق أعداد كبيرة من المصريين - وكذلك أهل البلدان الأخرى في العراق والشام - للإسلام. نقص مدخول خزانة الدولة الإسلامية من الجزية. فقررت الحكومة فرض الجزية حتى على من يتحول إلى الإسلام منهم. وأول من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة. هو الحجاج ابن يوسف ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة ".

الفصل الخامس
وصية النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)
بأقباط مصر

كان للأقباط المصريين مكانة خاصة لدى رسول الإسلام، جعله يفضلهم على كثير من الأمم الأخرى. ولم يكن سبب هذا التفضيل هو زواجه (صلى الله عليه وسلم) من مارية القبطية التي أنجبت له آخر أبنائه إبراهيم فحسب. وإنما كذلك لكون جدته الكبرى — هاجر أم إسماعيل — كانت مصرية قبطية كذلك. وهناك عدة أحاديث نقلت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أوصى فيها بحسن معاملة الأقباط المصريين. فهناك حديث مشهور رواه مسلم عن النبي يقول فيه: إنكم ستقتحمون مصر. وهي أرض يسمى فيها القيراط. فإذا اقتحمتوها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً. وفي رواية أخرى "ذمة وصهرًا".

قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم في فتح مصر: حدثنا أشهب بن عبد العزيز وعبد الملك بن مسلمة. قالا: حدثنا مالك بن أنس عن ابن شهاب عن ابن كعب بن مالك. عن أبيه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول: "إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا. فإن لهم ذمة ورحمًا." قال ابن شهاب: وكان يقال إن أم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

منهم. وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي ذر. قال: قال صلى الله عليه وسلم: "ستفتحون مصر. وهى أرض يسمى فيها القيراط. فاستوصوا بأهلها خيرًا. فإن لهم ذمة ورحمًا". (حسن المحاضرة، صفحة ١١).

وأخرج ابن عبد الحكم من طريق بحير بن ذاخر المعافري، عن عمرو بن العاص، عن عمر بن الخطاب، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "إن الله سيفتح عليكم مصر فاستوصوا بقبطها خيرًا. فإن لكم منهم صهرًا وذمة". كما أخرج الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في دلائل النبوة. بسند صحيح. عن أم سلمة. أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أوصى عند وفاته. فقال: "الله الله في قبط مصر. فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله". (حسن المحاضرة. صفحة ١٢).

وأخرج ابن الحكم. عن موسى بن أبي أيوب الغافقي. عن رجل من المريد. أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مرض، فأغمى عليه ثم أفاق. فقال: "استوصوا بالأدم الجعد". ثم أغمى عليه الثانية ثم أفاق فقال مثل ذلك. ثم أغمى عليه الثالثة فقال مثل ذلك. فقال القوم: لو سألنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الأدم الجعد! فأفاق فسألوه فقال: "قبط مصر. فإنهم أخوال وأصهار، وهم أعوانكم على دينكم". فقالوا كيف يكونون أعوانًا على ديننا يا رسول الله؟ فقال: "يكفونكم أعمال الدنيا فتتفرغون للعبادة. فالراضي بما يؤتى إليهم كالفاعل بهم. والكاره بما يؤتى إليهم من الظلم كالمتنزه عنهم". (حسن المحاضرة. ص١٣)

وأخرج ابن عبد الحكم عن ابن لهيعة، قال: حدثني عمر مولى غفرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "الله في أهل الذمة، أهل المدرة والسوداء، السحم الجعاد، فإن لهم نسبًا وصهرًا". قال عمر مولى غفرة: صهرهم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تسرى منهم، ونسبهم أن أم إسماعيل عليه الصلاة والسلام منهم. فأخبرني ابن لهيعة أن أم إسماعيل، هاجر أم العرب، من قرية كانت من أمام الفرما (في شمال سيناء) من مصر. (حسن المحاضرة، ص١٣).

وقال ابن عبد الحكم: حدثنا عمر بن صالح، أخبرنا مروان القصاص، قال: صاهر إلى القبط ثلاثة أنبياء: إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسرى هاجر، ويوسف عليه الصلاة والسلام تزوج بنت صاحب عين شمس، ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) تسرى مارية. وقال: حدثنا هانئ بن المتوكل، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد ابن أبي حبيب، أن قرية هاجر ياق التي عند أم دنين. (حسن المحاضرة، ص ١٣ و١٤).

وأخرج ابن عبد الحكم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سمعت المحاضرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: "إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض". فقال أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال: "**لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة**". (حسن المحاضرة، ص ١٤ و١٥). أن أبا سلام الجيشاني سفيان بن هاني أخبره، أن بعض أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: "**إنكم ستكونون**

أجنادًا وإن خير أجنادكم أهل الغرب منكم. فاتقوا الله في القبط. لا تأكلوهم أكل الخضر".

وبالفعل. حينما فتح عمرو بن العاص مصر أحسن إلى أهلها. فكان تسامحه مع مصر أثناء ولايته مثار دهشة المصريين وإعجابهم. وبعد نقله عاصمة البلاد من الإسكندرية إلى الفسطاط. ألقى ابن العاص خطبة الجمعة ذات يوم في آخر الشتاء. وبحسب ما أورده ابن الحكم. قام عمرو بن العاص على المنبر. ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم. ثم قال لهم: استوصوا بمن جاورتموهم من القبط خيرًا. ... (فقد) حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر. فاستوصوا بقبطها خيرًا فإن لكم منهم صهرًا وذمة. فعفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم ... واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة. ... وحدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول. إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا. فذلك الجند خير أجناد الأرض. فقال له أبو بكر: "ولم يا رسول الله؟ قال (النبي): لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة".

كما أكد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن من حقوقهم ايضا حمايتهم من الظلم الداخلى . ونقل عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قوله : "من ظلم معاهداً أو انتقصه حقاً أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فيه . فأنا حجيجه يوم القيامة" . ونقل ما ذكره ابن عابدين من ان ظلم الذمى أشد من ظلم المسلم اثماً

. وقال إن حق الحماية المقرر لأهل الذمة يتضمن حماية دمائهم وأنفسهم وأبدانهم وحماية أموالهم وأعراضهم . فهى كلها معصومة باتفاق المسلمين . ومن قتل ذمياً غير حربى قتل. ومن سرقه قطعت يده. "وبلغ من رعاية الإسلام لحرمه أموالهم وممتلكاتهم. إنه يحترم ما يعدونه – حسب دينهم – مالاً وان لم يكن مالاً فى نظر المسلمين "كالخمر والخنزير" .

ويحمى الإسلام عرض الذمى وكرامته كفاً للأذى عنه. وتحرم غيبته . "ولايجوز سبه أو اتهامه بالباطل أو التشنيع بالكذب. أو ذكره بما يكره" . وينقل عن القرافى المالكى "فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة . فقد ضيع ذمة الله وذمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وذمة دين الإسلام" . ومن حقوقهم تأمينهم عند العجز أو الشيخوخة أو الفقر .

فالضمان الإجتماعى فى الإسلام يشمل المسلمين وغير المسلمين . ويذكر عن شمس الدين الرملى الشافعى أن دفع الضرر عن أهل الذمة واجب كدفعه عن المسلمين . ومن حقوقهم أيضا حرية الاعتقاد والتعبد فلا إكراه فى الدين بنص القرآن . ولايجبر احد ولا يضغط عليه لترك دينه الى غيره. ولهذا لم يعرف التاريخ شعباً مسلماً حاول إجبار أهل الذمة على الإسلام ... وكذلك صان الإسلام لغير المسلمين معابدهم ورعى مشاعرهم.

وبالنسبة لبناء الكنائس ودور العبادة . أورد القرضاوى عهد عمر بتأمين الكنائس القائمة وقت الفتح الإسلامى . ثم أورد عهد خالد : " لهم أن يضربوا نواقيسهم . فى أية ساعة شاءوا من ليل أو نهار . وأن يخرجوا الصلبان فى أيام عيدهم" .

وجادلهم بالتي هى أحسن

تتعدد الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تدعو المسلمين إلى الحوار الإنساني بصفة عامة والى احترام الأديان الأخرى وفتح الحوار معها من اجل إقرار مبدأ التعايش السلمي بين أبناء البشرية الذين يعبدون إلها واحداً خاصاً وأن من صميم مبادئ الإسلام احترام الديانات السماوية والرسل والأنبياء فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم مخاطبا البشرية جمعاء (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) [الحجرات: ١٣]

ورد في القرآن والسنة أيضا ما يشير إلى أن الحوار مع الآخر هو مهمة أساسية من مهام المسلم لأنها تأتي في إطار الدعوة إلى الله وحث المسلمين على الالتزام بآداب محددة في هذا الحوار فقد قال الله تعالى (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [النحل: ١٢٥] وقال أيضا تعبيرًا عن تقديره لأهل الديانات السماوية وتأكيده على ضرورة الحوار معهم "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن" وقال عن أساسيات هذا الحوار: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ) [آل عمران: ٦٤]

ويقر القرآن الكريم في آياته بضرورة وجود اختلافات بين هؤلاء المتحاورين وذلك في قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ • إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُم) [هود: ١١٨] .

وجاء أيضاً فى سورة يونس الآيتان (٩٩ — ١٠٠) (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ • وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُون).

ولكن الأهم من ذلك أيضًا أن القرآن الكريم ينص على احترام شرائع ومعتقدات كل ديانة أخرى سماوية والدليل فى ذلك قوله تعالى(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)[المائدة: ٤٨] .

وغني عن القول ما نادى به الإسلام في شريعته من جواز إقامة المعاملات اليومية والحياتية الطبيعية مع أهل الكتاب من بيع وشراء وحسن الجوار والالتزام بالقوانين وآداب المعاملة ... إلخ.

"فموقف الدين الإسلامي من الأديان الأخرى التي جاءت بها الرسل السابقة هو الإيمان بجميع الرسل والتصديق لهم . وإنهم رسل الله حقاً. نصحوا أممهم . وبلغوا رسالات الله . وأقاموا حجة الله على أممهم." الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ — مفتي المملكة العربية السعودية.

مصر في القرآن

يكاد اسم مصر يكون الاسم الوحيد الذي ورد في القرآن الكريم لدولة من الدول. فقد جاء ذكر مصر في أكثر من ٢٨ مرة

صراحة أو كناية. في القرآن. ففي الآية ٦١ من سورة البقرة جاء على لسان موسى عليه السلام مخاطبًا بني إسرائيل وهم في سيناء. وكانوا مستائين لعدم وجود سوى طعام واحد: (اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم (فيها) مَّا سَأَلْتُمْ) من طعام. وفي سورة يونس (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا (بني إسرائيل) بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً). [الآية ٨٧] وعند المواجهة بين موسى وفرعون: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي). [الزخرف ٥١]

وفي سورة يوسف قال تعالى في الآية ٢١: (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ (أي يوسف) مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً). ثم وصل والده يعقوب عليه السلام إلى مصر مع عائلته: (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّه آمِنِينَ) [الآية ٩٩]. وكذلك نسب بعض الرواة آيات قرآنية تتعلق بوجود العائلة المقدسة بمصر. ففي الآية ٥٠ من سورة المؤمنون **(وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين)**. فقد قال ابن أبي حاتم. عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي مصر. وليس الربا إلا بمصر. والماء حين يرسل. تكون الربا عليها القرى. (و) لولا الربا لغرقت القرى. كما ذهب إلى ذات التفسير ابن المنذر في تفسيره وابن عساكر في تاريخ دمشق. وعن الضحاك عن ابن عباس. أن عيسى عليه السلام كان يرى العجائب في صباه إلهامًا من الله. ففشا ذلك في اليهود. وترعرع عيسى. فهمت به بنو إسرائيل. فخافت أمه عليه. فأوحى الله إليها أن تنطلق به إلى أرض مصر. وذلك في

قوله تعالى: (وآويناهما إلى ربوة).

بحسب ما أورده جلال الدين السيوطي. فقد جاء في كتابات المؤرخين في وصف مصر أنها كانت إقليم العجائب ومعدن الغرائب. وكانت بها مدن متقاربة على ضفتى نهر النيل وكأنها (مصر) مدينة واحدة. البساتين بها تمتد متصلة خلف المدن. كأنها بستان واحد. وخلفها توجد المزارع. وقيل إن الكتاب كان يصل من الإسكندرية في الشمال إلى أسوان في الجنوب في يوم واحد. حيث يناوله كل قيم على بستان إلى من يليه.

وهناك رواية تقول إنّ الخليفة لما دخل مصر. قال: قبح الله فرعون الذي قال: (أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ) [الزخرف: ٥١] فماذا لو رأى العراق! فرد عليه سعيد بن عفير قائلا: لا تقل هذه يا أمير المؤمنين. فإن الله تعالى قال: (وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ). [الأعراف: ١٣٧] فما ظنك بشيء دمره الله تكون هذه هي بقيته! فقال الخليفة: ما قصرت يا سعيد.

ثم قال ابن عفير: يا أمير المؤمنين. لقد بلغنا أنه لم تكن هناك أرض أعظم من أرض مصر. الجميع يحتاج إليها. كانت بها قناطر وجسور حتى أن الماء كان يجري تحت منازل وأفنية المصريين. الذين كان في وسعهم أن يحبسوه متى شاءوا ويرسلوه متى شاءوا. كانت البساتين تمتد على ضفتى نهر النيل. من أوله إلى آخره ما بين أسوان ورشيد. وكانت المرأة تخرج حاسرة ولا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر. كما كان أهل مصر بينهم القبطي واليوناني والعمليق. إلا أن جمهورهم قبط. وكانت منف مدينة الملوك قبل

الفراعنة وبعدهم. وكان لها سبعون بابًا وحيطانها بالحديد. وكان يجري تحت سرير الملك أربعة أنهار. وكانت جباية مصر تسعين ألف ألف دينار مكررة مرتين بالدينار الفرعوني. وهو ثلاثة مثاقيل. (حسن المحاضرة. ص ٢٣ – ٢٤)

ولما بنى جوهر الصقلي مدينة القاهرة سماها المنصورة. وعندما قدم المعز لدين الله الفاطمي غير هذه الاسم. وسماها القاهرة. وذلك أن جوهر لما أراد إقامة السور حول المدينة. جمع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعًا لحفر الأساس وطالعًا لري حجارته . فوضعوا قوائم من خشب – بين القائمة والأخرى حبل فيه أجراس. وأعلموا البنائين أنه ساعة تحريك الأجراس. يرمون ما بأيديهم من الطين والحجارة. فوقف المنجمون ينتظرون ساعة تحريك الأجراس. وأخذ الطالع فاتفق وقوع غراب على واحدة من الخشب. فتحركت الأجراس وظن الموكلون بالبناء أن المنجمين هم الذين حركوها. فألقوا ما كان في أيديهم من الطين والحجارة في الأساس. فصاح المنجمون: لا لا. القاهرة في الطالع. فمضى ذلك فلم يتم لهم ما قصدوه. وكان الغرض أن يختاروا طالعًا لا يخرج عن نسلهم. فصادف أن المريخ كان في الطالع. وهو يسمى عند المنجمين القاهرة. ولما قدم المعز وعلم بهذه القصة. وافقهم على رأيهم وسماها القاهرة. (حسن المحاضرة. ص ٢٥ – ٢٦).

الفصل السادس
أهل الكتاب وأهل الذمة

أهل الكتاب هو اسم يطلق في الإسلام على أصحاب الديانات السماوية التي يعترف بها الإسلام، وهذه الديانات هى اليهودية، والنصرانية.

وقد رد الحديث عن أهل الكتاب في القرآن الكريم، باعتبارهم من أتباع الديانات التي لا تعبد الأصنام – مثلها في ذلك مثل المسلمين – بل تؤمن بالله ولا تشرك به شيئًا. فهناك حد مشترك يجمع بين المسلمين وأهل الكتاب، ألا وهو عبادة الله وحده وعدم الشرك به. ويبدو أن أهل الكتاب – ولو أن كلمة كتاب هنا تعبر عن المفرد – تعني كل الذين تبعوا الأنبياء السابقين على محمد عليه الصلاة والسلام، والذي أنزل الله عليهم كتبًا. تقول الآية ٢١٣ من سورة البقرة:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ).

وجاء بتفسير ابن كثير لهذه الآية: اختلف أهل التأويل في معنى الأمة في هذا الموضع . وفي الناس الذين وصفهم الله بأنهم

كانوا أمة. فَقال بعضهم : هم الذين كانوا بين آدم ونوح . وهم عشرة قرون. كلهم كانوا على شريعة من الحق . فَاختلَفوا بعد ذلك. أما المقصود هنا بكلمة (الكتاب) فهو التوراة التي نزلت على بني إسرائيل. وقد جاء في سورة البقرة الآية ٨٧ : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ).

كما جاء في سورة آل عمران: (**نزل علَيك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه و أنزل التوراة والإنجيل**). وقد ورد في تفسير الطبري لهذه الآية: القول في تأويل قَوله تعالَى : (**نزل عليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديهِ**) يقول جل ثناؤه : يا محمد إن ربك ورب عيسى ورب كل شيء . هو الرب الذي أنزل عليك (الكتاب) يعني بالكتاب : القرآن. كما جاء في الآية ١٨٤ من سورة آل عمران التي تخاطب الرسول: (فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ).

ورغم أَن هناك اتفاقًا بين أَهل الكتاب والمسلمين على رفض الشرك أَو عبادة الأَصنام. فهم يختلفون في ما بينهم في مسائل أَخرى. مثل قيامة الأَموات بالنسبة لليهود وموت المسيح بالنسبة للنصارى. وبرغم نقاط الخلاف الموجودة بين المسلمين وأَهل الكتاب. فالقرآن يؤكد على ضرورة عدم القتال أَو الصدام بينهم لهذا السبب. بل يتركون لعقائدهم الخاصة بينما يستمر المسلمون في تمسكهم باعتقادهم كذلك. وقد جاء بالآية ٤٦ من سورة العنكبوت: (وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ). فقد أمر الله سبحانه وتعالى النبي والمؤمنين بمخاطبة أهل الكتاب بالحسنى في المسائل الخلافية بينهم. ذلك أن الرسالة التي أنزلت على نبي الإسلام هى ذات الرسالة التوحيدية التي أنزلت على أهل الكتاب. كما أنهم يعبدون نفس الإله – الواحد – الذي يعبده المسلمون.

وعندما حول الرسول (صلى الله عليه وسلم) قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى الكعبة بعد وصوله مع المهاجرين إلى المدينة، ظن البعض أن هذا يعني تغيز الوحدة التي كانت قائمة بين أهل الكتاب. لكن القرآن الكريم جاء لينفي هذه الفرقة. ويؤكد أن اختلاف القبلة لا يعني نهاية العلاقة الخاصة مع اليهود والنصارى. فقد جاء بالآية ١٤٥ من سورة البقرة: (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ).

أهل الذمة

"أهل الذمة" اصطلاح عرفه الفقه الإسلامي يطلق على من يجوز عقد الذمة معهم. وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى. كما اعتبر المجوس أهل ذمة وأخذت منهم الجزية. واعتبر السامرة والصابئة أهل ذمة بشرط أن يوافقوا اليهود والنصارى في أصل عقيدتهم. ومعنى "الذمة" التزام تقرير "توطين" أهل الكتاب في ديار الإسلام وحمايتهم مقابل "الجزية". فقد أمر الله المؤمنين بأن تكون دعوتهم طيبة وأن يخاطبوا الناس برفق. فلا إكراه في الدين ولا

تهديد. وهناك العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي تدعو المسلمين إلى الحوار مع الآخرين برفق، وخاصة من كانوا من أتباع الديانات السماوية الأخرى.

كان أول ما استعملت فيه كلمة (الذمة)، في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلَّم) إلى أهل نجران، فقد كتب لهم:

"ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله، على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم... وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته... ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقًّا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين...". ونجد مثل ذلك النص في كتاب خالد بن الوليد إلى أهل الحيرة وقد أقره الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واعتبره الفقهاء - بتعبير الإمام القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة - نافذًا على ما أنفذه عمر إلى يوم القيامة (الخراج لأبي يوسف، ص ٧٨- ١٥٥-١٥٩).

فبعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقيام الخلفاء بعد ذلك بمد حدود الدولة الإسلامية خارج الجزيرة العربية، وجدوا كثيرًا من النصارى واليهود من أهل الكتاب في البلدان التي فتحوها، فعاملوهم معاملة خاصة باعتبارهم أهل ذمة. أما الصابئون اللاجئون في بلاد الرافدين السفلى فقد كانوا ملاحين ممتازين، صيادي لآلئ في معظمهم، فكانوا يكملون لائحة الذميين، مع الفرس الزرداشتيين المنتشرين في بلاد الرافدين، والمزدكيين الذين كانوا

يقطنون بلاد القوقاز والأمصار الواقعة على ساحل بحر قزوين.

وعندما وصل عمرو بن العاص إلى الأراضي المصرية، كان الأقباط المصريون يعانون من اضطهاد البيزنطيين لهم، مما أدى إلى هروب البطريرك بنيامين واختفائه في كهوف الصحراء. ولما علم بنيامين بوصول المسلمين، استبشر بقرب زوال حكم البيزنطيين في مصر، وطلب من المصريين مساعدة العرب القادمين في مواجهة البيزنطيين. وهناك رواية تقول إن القبط ساعدوا عمرو بن العاص في دخول الفرما في شمال سيناء، كما ساعده بعد ذلك في مسيرته إلى الإسكندرية، التي كانت عاصمة البلاد حينذاك. وبعد رحيل البيزنطيين، استقدم عمرو بن العاص البطريرك بنيامين وأعطاه الأمان. فراح بنيامين يعمل لتقوية كنيسته ويؤسس الأديرة والكنائس التي هدمت قبل الفتح الإسلامي، كما أرسل مطرانًا إلى بلاد الحبشة، وكانت آخر أعماله تأسيس كنيسة جديدة للقديس مكاريوس في وادي النطرون. (ابن عبد الحكم: فتوح مصر، صفحات ٥٨ - ٥٩ – تاريخ ابن البطريق، صفحة ٢١).

ورغم اختلاف الآراء حول ما إذا كانت مصر فتحت صلحًا أم عنوة، فقد عومل المصريون على أساس أن بلادهم فتحت صلحًا. والتزم الوالي عمرو بن العاص في حكمه بمصر بمبدأ حرية العقيدة، كما أعطى للمقوقس مساحة من بركة الحبش لتكون جبانة للقبط. وسمح عمرو للمصريين ببناء الكنائس، فبنيت بطريركية مار مرقص بالإسكندرية فيما بين عامي ٣٩ – ٥٠ من الهجرة، كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم أثناء ولاية مسلمة ابن مخلد (٤٧ – ٦٨ هجرية). (قاسم عبده، أهل الذمة في مصر،

صفحة ٣٠) وكان أهل الذمة هم الذين ينظمون الشئون الداخلية لطوائفهم بأنفسهم. عملا بما جاء في القرآن: (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّٰه فِيهِ) [المائدة: ٤٧] وكان البطريرك بعد اختياره من شعبه في الإسكندرية عن طريق الانتخاب. يتوجه إلى العاصمة الجديدة - في الفسطاط أو القاهرة - لمقابلة الوالي.

ومن الناحية الشرعية فإن الشرط الرئيسي لوجود أهل الذمة تحت سيطرة الدولة الإسلامية وتمتعهم بحمايتها. هو القيام بدفع الجزية. وبحسب ما ذكره الدكتور قاسم عبده قاسم في كتابه عن أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية دولة المماليك. فإن شروط عقد الذمة المستحقة هي ستة:

١ - عدم ذكر الإسلام بذم له أو مدح فيه.

٢ ـ عدم ذكر كتاب الله بطعن له أو تحريف فيه.

٣ ـ عدم ذكر الرسول بتكذيب له أو ازدراء.

٤ ـ عدم إصابة مسلمة بزنا أو باسم نكاح.

٥ ـ عدم فتنة المسلم عن دينه أو التعرض لماله أو دمه.

٦ ـ عدم معاونة أهل الحرب ضد السلطة الإسلامية.

(صفحة ٢٤)

الجزية

اعتبر فقهاء الشريعة الإسلامية أن الجزية المفروضة على أهل

الذمة بمثابة ضريبة دفاع في مقابل ما يتمع به هؤلاء من حماية في ديار الإسلام. وهي تختلف في رأيهم عن ضريبة الرأس التي كانت سائدة أيام الرومان. وقد قسم أبو حنيفة دافعي الجزية إلى ثلاثة أقسام: أغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهمًا. وأوساط يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهمًا. وفقراء يؤخذ منهم اثنا عشر درهمًا. (قاسم عبده. أهل الذمة في مصر. صفحة ٢٦) ولا تجب الجزية على صبي أو امرأة أو مجنون أو خنثى. ولا تؤخذ من ليس أهلا للقتال كالشيخ الكبير. وتسقط الجزية على من أسلم.

ومن الناحية الشرعية لم تتعرض أموال أهل الذمة – باستثناء الجزية - لأية ضرائب أخرى. وأما بالنسبة إلى التجارة. فقد أعفيت أموال التجارة الداخلية من الضرائب. ولكنها فرضت على التجارة الخارجية. بمقدار نصف العشر. (قاسم عبده. أهل الذمة. صفحة ٢٨) ويذكر ابن عبد الحكم أن النظام الضريبي في مصر. بقى بعد الفتح الإسلامي شبيهًا بما كان عليه أيام البيزنطيين. ويقول إن عمرو بن العاص "... أقر قبطها (مصر) على جباية الروم". في ما يخص ضريبة الأرض وغيرها. (ابن عبد الحكم. فتوح مصر. ص ٧٠ – ٧١) وكانت مصر تعتبر مصدرًا مهمًا من مصادر المال بالنسبة إلى دولة الخلافة الإسلامية. سواء في المدينة المنورة أو في دمشق أو بغداد. (قاسم عبده. أهل الذمة في مصر. ص ٣٨).

وبشكل عام لم يفرض الحكام العرب أية قيود على ممارسة أهل الذمة لحرياتهم الدينية طوال عصرالولاة. ومن المعتقد أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز كان هو اول من أمر بإعفاء الأساقفة

والكنائس من دفع الخراج. ففي عهد الخليفة العباسي المعتز. أرسل شنودة بطريرك الإسكندرية رسالة إليه في بغداد يشتكي من تهدم بعض الكنائس نتيجة لتعسف عامل الخراج. فكتب المعتز مرسومًا بإعادة تعميرها. ولكنه مات قبل التوقيع عليه فنفذه خليفته المستعين بالله. (قاسم عبده. أهل الذمة في مصر. ص ٣٣).

أظهرت الخلافة الأموية تسامحاً كبيرًا تجاه أهل الذمة. فتركت لهم حرية إقامة الشعائر الدينية والاحتفاظ بكنائسهم. وفي عهد العباسيين. كان ينظر إلى الذميين بحلم وتسامح. فقد كانوا يعاملون دائماً بتساهل كبير على صعيد الحريات الدينية. وازدهرت الأديرة والكنائس المسيحية والمناسك والمعابد اليهودية كثيرًا. حتى أن الدولة الإسلامية في عهد المأمون. في مطلع القرن التاسع. كانت تحوى فوق أراضيها أكثر من ١١,٠٠٠ كنيسة وبضع مئات من الأديرة والجمعيات المسيحية. وفي القرن العاشر ترك للذميين حرية إدارة ذاتهم بذاتهم بإشراف رؤسائهم المختارين من قبلهم. إلى جانب قضاتهم وقوانينهم الخاصة. كما سمح لهم بدخول الوظائف العامة. وسرعان ما صار أهل الذمة أطباء وممرضين عموم ومصرفيين وصيارفة وتجار جملة وصار بعضهم فى عداد الوزراء. وفى منتصف القرن الحادى عشر استطاع بعض المسيحيين الحصول على ارفع المناصب فى الدولة.

إدارة الدولة

لم يبدأ انتشار الإسلام بشكل واسع في مصر إلا منذ القرن الثاني للهجرة. كما أصبحت العربية هى اللغة الرسمية منذ عهد

الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عند نهاية القرن السابع للميلاد. وإن استمر استخدام القبطية إلى جانبها حتى العصر العباسي عندما أصبحت العربية وحدها في لغة الدواوين. (قاسم عبده. أهل الذمة في مصر. ص ٣٤) وبعد الفتح الإسلامي. استمر الجهاز الإداري الذي وضعه البيزنطيون قائمًا. كما استمر بعض الموظفين البيزنطيين في عملهم. وإن حل الأقباط مكان البعض منهم. وصار الأقباط منذ الفتح الإسلامي يشكلون طبقة وراثية متمرسة في الشئون المالية والإدارية. كما تولوا مناصب كثيرة في الجهاز الإداري للدولة. (قاسم عبده. أهل الذمة في مصر. ص ٣٧).

وخلال حكم الدولة الفاطمية عم استخدام أهل الذمة في إدارة شئون البلاد. واكتظت دواوين الحكومة بالموظفين النصارى واليهود خصوصًا في العصر الفاطمي الأول. بل كان منهم الوزراء والوسطاء ورؤساء الدواوين. وتغلغل الموظفون الأقباط في كافة الدواوين المالية والإدارية. وحرص الخلفاء الفاطميون على استخدامهم نظرًا لمهارتهم في الأمور المالية. فقد كانوا أكثر معرفة وخبرة بجباية الخراج والجزية والضرائب. كما تم اختيار معظم أطباء قصور الخلافة من بين أهل الذمة. نظرًا لبراعتهم في علوم الطب وتركيب الدواء. (أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول. ص ٢٧).

الأعياد والمواسم القبطية

ورغم خضوع المصريين لسيطرة المسلمين. فقد تركوهم يمارسون عاداتهم القديمة بدون تدخل من جانبهم. بل إن بعض المواسم والأعياد القبطية. أخذت طابعًا قوميًا في ظل الدولة

الإسلامية، مثل الأعياد الخاصة بنهر النيل. بل إن المسلمين كانوا يشاركون في الاحتفال ببعض الأعياد القبطية، ويساهمون بمظاهر المجاملة وتبادل الأطعمة والحلوى وغيرها من الهدايا. (قاسم عبده، أهل الذمة، ص ١٥٢) ومن أشهر تلك الأعياد التي اتخذت طابعًا عامًا في مصر، عيد الشهيد. وهو مهرجان سنوي يقام في الثامن من شهر بشنس القبطي. إذ كان الاعتقاد السائد هو أن نهر النيل لا يزيد ماؤه في موسم الفيضان، إلا إذا ألقي فيه إصبع الشهيد الذي كانوا يحتفظون به داخل تابوت في كنيسة بحي شبرا، وكان الشهيد واحدًا من القديسين لدى النصارى. (القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ١٣، ص ٢٦٣).

وما كان يعمل بمصر عيد الشهيد - وكان من أنزه فرح مصر - وهو اليوم الثامن من بشنس أحد شهور القبط. ويزعمون أن النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى يلقي النصارى فيه تابوتا من خشب، فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى. ويكون ذلك اليوم عيدا ترحل إليه النصارى من جميع القرى، ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها، ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم، وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر (الجزر النيلية) ولا يبقى مغن ولا مغنية، ولا صاحب لهو، إلا ويخرج لهذا العيد. فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم، وتصرف أموال لا تنحصر. وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائمًا بناحية شُبْرى (شبرا) من ضواحي القاهرة".

وقد أبطل هذا الاحتفال سنة اثنتين وسبعمائة للهجرة

(حوالي ١٣٠٢ للميلاد). والسلطان يومئذ بديار مصر الملك الناصر محمد قلاوون (الخليفة العباسي). والقائم بتدبير الدولة الأمير ركن الدين بيبرس (المملوكي) في إبطال ذلك ... فتقدم أمر الأمير بيبرس ألا يرمى إصبع في النيل ولا يعمل له عيد. وندب الحجاب ووالي القاهرة لمنع الناس من الاجتماع بشبرا على عادتهم. وخرج البريد إلى سائر أعمال مصر ومعهم الكتب إلى الولاة بالجهر بالنداء وإعلانه في الأقاليم بألا يخرج أحد من النصارى ولا يحضر لعمل عيد الشهيد. (السيوطي. حسن المحاضر. جـ٢ صفحة ٢٩٩).

كما كان المصريون يحتفلون كذلك بعيد النيروز. وهو رأس السنة القبطية الذي يحل في أول شهر توت سنويًا. وكان في القديم عيدًا فرعونيًا. وحتى عصر المماليك — منذ حوالي أربعة قرون ونصف — كان النيروز يمثل عيدًا قوميًا في مصر. وكان يعتبر عطلة عامة. فتغلق الأسواق في هذا اليوم وتعطل المدارس. ويتجمع الناس في شوارع القاهرة وأزقتها ثم يطوفون على شكل مهرجان على رأسه شخص يركب حمارًا وجهه مدهون بالدقيق أو بالجير الأبيض. وله لحية مستعارة. ويرتدي ثوبًا أصفر اللون. وعلى رأسه طرطور طويل. ويمسك راكب الحماربدفتر في يده. كما يحيط به الجريد الأخضر وشماريخ البلح. ويطوف هذا الموكب في شوارع القاهرة. ويدخل الأسواق لتحصيل بعض النقود. بينما يقف العامة في الطرقات يتراجمون بالبيض ويتضاربون بالجلود ويتراشقون بالماء. وكان الناس يأكلون الحلوى في عيد النيروز. مثل الزلابية والهريسة إلى جانب البطيخ والخوخ والبلح. (قاسم عبده. أهل الذمة في مصر. ص ١٥٥).

كان المسلمون يشاركون كذلك في احتفالات المسيحيين بعيد الميلاد. الكريسماس.(٧ يناير من العام الميلادى) حيث كانوا يطبخون نوعًا من العصيدة التي تحميهم من برد الشتاء. وقد شاهد المقريزي – المؤرخ المصري الذي عاش في زمن المماليك – احتفال عيد الميلاد. حيث كانت تباع الشموع والفوانيس المصبوغة بالألوان المختلفة. تعلق في الأسواق ابتهاجًا بالعيد. وفي عيد الغطاس كان بعض المسلمين يشاركون الأقباط في غمس أولادهم في الماء. رغم برودته. وفي خميس العهد. كان النصارى يقدمون إلى جيرانهم المسلمين أنواع العدس والسمك المقلي والبيض الملون. كما كانت النساء تخرجن في ذلك اليوم لشراء البخور. (قاسم عبده. أهل الذمة في مصر. ص ١٥٥- ١٥٦).

الفصل السابع
سماحة الإسلام فى معاملة أهل الكتاب

يتطلب السلام الاجتماعي في بلادنا عملية الارتباط بين أفراد المجتمع، على قاعدة من المحبة والأمن والسلامة، بغض النظر عن مذاهبهم وأديانهم وطوائفهم، على أساس قواعد متينة من المساواة والتواضع والرحمة والأمن والكرامة للجميع. وعلى خلاف الذين يدعون الآن إلى سوء معاملة النصارى واليهود، فقد قامت الدعوة الإسلامية على أساس من حسن معاملة أهل الكتاب، وهناك نماذج عديدة في التاريخ لسماحة الإسلام وتحريم الظلم والاضطهاد. فقد جاء بعهد النبي (صلى الله عليه وسلم) لأهل نجران بشمال اليمن، أنه: "لا يؤخذ رجل منهم بظلم (رجل) آخر" (الخراج لأبي يوسف، ص ٧٢-٧٣). وعن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه قال: "أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا، وأن يوف لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وألا يكلفوا فوق طاقتهم" (الخراج ليحيى بن آدم القرشي، ص ٧٤). وخصص الإمام البخاري فصلا كاملا عن "الوصاية بأهل ذمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)". كما أورد رواية أخرى "أوصيكم بذمة نبيكم ورزق عيالكم" (البخاري، كتاب الجزية، ٦/ ح ٧١٦٢/٣٠٨).

وأخرج ابن الحكم عن أنس، قال: أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين (إني) عائذ بك من الظلم. قال (عمر): عذت معاذًا. فقال (الرجل): سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه، ويقدم ابنه معه. فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب. فجعل (المصري) يضرب بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين، ثم قال للمصري: ضعه على صلعة عمرو. قال (الرجل): يا أمير المؤمنين، إنما ابنه (هو) الذي ضربني وقد أشفيت منه. فقال عمر لعمرو: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا. قال (عمرو): يا أمير المؤمنين، لم أعلم ولم يأتني (الرجل). (حسن المحاضرة للسيوطي، ٢/٢).

كما قال أبو يوسف: حدثني عمر بن نافع عن أبي بكر، قال: مرَّ عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بباب قوم، وعليه سائل يسأل، شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال (الشيخ): (أنا) يهودي. قال (عمر): فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال (الشيخ): أسال الجزية والحاجة والسن. قال (أبو بكر): فأخذه عمر بيده وذهب به إلى منزله، فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن المال، فقال (له): انظر هذا ... فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شيبته ثم نخذله عند الهرم. "إنما الصدقات للفقراء والمساكين". فالفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب. ووضع عنه الجزية وعن ضربائه. (الخراج لأبي يوسف، ص ١٢٦).

وقد كفل الإسلام حقوق أهل الذمة وأكد على ضرورة المساواة

في التمتع بها كما للمسلمين. وهناك قواعد وضعها الإسلام لطريقة معاملتهم بالحسنى. تقوم على عدة أسس من عدم الإكراه وحفظ العهد والحماية. بل إن حسن معاملة أهل الذمة يذهب إلى ضرورة ودهم والإحسان إليهم وعدم تحميل غير القادر منهم على دفع الجزية. وإقامة العدل ومنع الظلم.

فالدعوة الإسلامية لا تنتشر كراهية. وإنما بالقبول. وقد جاء في الآية ٩٩ من سورة يونس: (أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ). كما جاء بالآية ٢٥٦ من سورة البقرة: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ). وقال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: "أي لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام. فإنه واضح جلي ... لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه" (٣١٨/١). ويقول ابن قدامة : "إذا ما أكره (أحد) على الإسلام فأسلم. لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعًا".

والأساس الأول أن أباحت الدولة الإسلامية لأصحاب الديانات السماوية الأخرى ممارسة شعائرهم الدينية وأداء عباداتهم. ونهت عن التعرض لأماكن عبادتهم. بل إن من مقاصد الجهاد فى سبيل الله الحفاظ على أماكن العبادة لجميع الأديان. يقول الله تعالى (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً). [سورة الحج: ٤٠]. وقد أوصى الخليفة أبو بكرجيوشه قائلا: ولسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. كما عقد النبي عليه الصلاة والسلام حلف موادعة ومسالمة

مع يهود المدينة بعد هجرته إليها، وأقرهم على دينهم وأموالهم. وتعهد عمرو ابن العاص لأهل الكتاب من المصريين بألا يتعرض المسلمون لكنائسهم بسوء وألايتدخلوا في أمور النصارى. وسمح ببقاء اليهود بالإسكندرية متمتعين بنفس تلك الشروط. وإذا كانت الشريعة الإسلامية أجازت للمسلمين الزواج من الكتابيات (أهل الكتاب)، فإنها لم تجز للزوج المسلم إرغام زوجته الكتابية على ترك دينها أو منعها من أداء عبادتها وشعائرها الدينية.

كما تتطلب حسن معاملة أهل الكتاب حفظ العهد. وهناك حديث نبوي عن أبي رافع، قال الرسول: "لا أخيس بالعهد ولا أحبس الرسل" (أبو داوود ٣/ح ٢٧٠٧/٨٣). فالمعاهدون من أهل الذمة، لهم على الحاكم المسلم الوفاء بعهدهم. وقال الصنعاني تعليقًا على هذا الحديث: "فيه دليل على حفظ العهد والوفاء به — ولو لكافر- وعلى أنه لا يحبس (يمسك) الرسل بل يرد جوابه" (سبل السلام ١٣٧١/٤). كما يتوجب على المسلمين حماية الذمي من أهل الكتاب، من أي اعتداء قد يقع عليه، سواء أكان من الخارج أم من الداخل، وصيانة كرامته. وقد نقل عن ابن حزم ما قاله في كتابه عن مراتب الإجماع "إن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم ... ونموت دون ذلك، صونًا لمن هو في ذمة الله ورسوله ... وحكي في ذلك إجماع الأمة" (الفروق للقرافي ١٤/٣). كما يقول شهاب الدين القرافي: "إن عقد الذمة (مع أهل الكتاب) يوجب حقوقًا علينا لهم، لأنهم في جوارنا وفي

خفارتنا وذمة الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ودين الإسلام. فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الأذية أو أعان على ذلك. فقد ضيع ذمة الله وذمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذمة دين الإسلام" (الفروق للقرافي ١٤/٣) .

وتوجب تعاليم الإسلام السمحة كذلك ضرورة البر بأهل الذمة، والإحسان إليهم وودهم. ويستند هذا التوجب على ما ورد في الآية ٨ من سورة الممتحنة: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ). ويرى القرافي في شرحه هذه الآية ضرورة "الرفق بضعيفهم (أهل الذمة) وسد جلة فقيرهم وإطعام جائعهم وإكساء عاريهم ولين القول لهم، على سبيل اللطف لهم والرحمة (بهم)" (الفروق ١٥/٣). ومن علامات الرحمة بالذميين كذلك، عدم تحميل غير القادرين منهم لدفع الجزية. فهي لا تضرب على الصبيان والنساء ولا على الرهبان المنقطعين للعبادة. كما لا تضرب على المريض زائل العقل. وقد كتب الخليفة عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — إلى أمراء الأجناد "أن اضربوا الجزية ولا تضربوها على النساء والصبيان. ولا تضربوها إلا على من جرت عليه المواسي". وليس هناك خلاف على هذا بين الفقهاء، كما اتفق على ذلك مالك وأبو حنيفة والشافعي.

ضرورة إقامة العدل ومنع الظلم. ولو كان هذا الظلم قد وقع

من مسلم على كافر. جاء في الآية ٨ من سورة المائدة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى). كما تجب المساواة بين المسلمين و أهل الكتاب أمام القضاء. إذ يمكن لأهل الكتاب التحاكم إلى قضاة المسلمين. وفي هذه الحالة يجب أن يقضي بينهم بالقسط. فقد جاء في الآية ٤٢ من سورة المائدة: (وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ). وإذا كان للذمي حق عند أكبر الشخصيات في الدولة الإسلامية فللذمي حق مقاضاته. فقد وجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب- رضي الله عنه - درعه عند رجل يهودي فكلمه. فقال اليهودي: درعي و(هو) في يدي. ثم قال الرجل بيني وبينك قاضي المسلمين. فأتيا شريحاً القاضي. فقال علي إنها درعي فقال شريح (القاضي) لابد من شاهدين. فدعا قنبر وولده الحسن فشهدا أنها درعه. فقال شريح: أما شهادة مولاك فقد أجزناها وأما شهادة ولدك لك فلا نجيزها. فقال علي ثكلتك أمك: أما سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة؟ قال اللهم نعم. قال أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة؟ قال إنه ولدك. ثم قال لليهودي خذ الدرع فقال اليهودي: أمير المؤمنين جاء معي إلى قاضي المسلمين فقضى لي ورضي. صدقت والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك سقطت عن جملك فالتقطتها.

وفي ما يتعلق بالحقوق الإدارية. أقر الفقهاء بحق أهل الذمة في

تولي أرفع المناصب وأعلاها الخاصة بإدارة شئون الدولة. كالمحاسبين والمهندسين غيرها من الوظائف وإن بلغوا أعلاها كوزير أو مدير عام في الوزارات التنفيذية. ويراعى في ذلك الاختصاص والكفاءة والنزاهة. والواقع أن اليهود والنصارى - في أيام الدولة الإسلامية - لم يمنحوا حرية المعتقد الديني فحسب. بل عهد إليهم كذلك بتولي المناصب الحكومية حين كانت مؤهلاتهم الشخصية من القوة بحيث تلفت انتباه الحاكمين.

ويشير الدكتور القرضاوى فى علاقة المسلمين بغيرهم. الى ما لايدخل فى نطاق الحقوق التى تنظمها القوانين. وهو الروح التى تبدو من حسن المعاشرة ولطف المعاملة ورعاية الجوار وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان . وأورد جملة من آيات القرآن تحض المسلم على البر والقسط مع غير المسلمين ممن لايقاتلونهم فى الدين (وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ) (العنكبوت:٤٦). وإكرام الرسول لأهل الكتاب وزيارتهم وعودة مرضاهم والتعامل معهم . وذكر أن أساس التعامل مع غير المسلمين (اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان أيا كان دينه أو جنسه أو لونه). (اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس فى الدين واقع بمشيئة الله تعالى) . (ليس المسلم مكلفاً أن يحاسب الكافرين على كفرهم أو يعاقب الضالين على ضلالهم) . (إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل ويحب القسط) . وأن من ضمانات سيادة هذة الروح لدى المسلمين. أن الإسلام نفسه يحض المسلمين عليها (٤٤) .

الاعتداء مرفوض على الأجانب وغير المسلمين

فى الشريعة الإسلامية وعظمة تشريعاتها وأحكامها تتضح فى حمايتها لأصحاب العقائد الأخرى وصونهم من الاعتداءات عليهم والذى يتساوى جرمه مع الاعتداء على أبنائها وجريمة الحرابة تتحقق-سواء وقعت على المسلمين أو أهل الكتاب أو المستأمنين ويقصد بهم من يدخل أرضنا بأمان أى أننا نعطيه الأمان على نفسه وماله وعرضه فلا يجوز الاعتداء عليه حتى لو كنا فى حالة حرب مع بلده مادام قد دخل أرضنا للتجارة أو للسياحة أو تلقى العلم فالالتزام بعقدنا معه أمر واجب ودليله قوله تعالى **(وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا)** . كما قال الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) (المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم بذمتهم أدناها) أى يفى بعهدهم أقل واحد فيهم. وبناء علية يكون دم الاجنبى بل وماله وعرضه حرامًا لايجوز الاعتداء عليه بأى شكل من الأشكال .

هذا، وقد انتهى عقد الذمة الأول مع نهاية الدولة الإسلامية في العصر الحديث، عندما ألغى كمال أتاتورك الخلافة في الدولة العثمانية سنة ١٩٤٢، ونشأت الدول القومية في البلدان الإسلامية، التي تقوم السيادة فيها على نحو جديد من العقد الاجتماعي القائم على المساواة في الحقوق والواجبات بين أبناء الوطن الواحد، مسلمين ومسيحيين.

المواطنة

المواطنة كلمة تعني أن يتحرر المجتمع من قيود أي انتماء أو تحزب ويذوب الجميع في بوتقة الوطن الواحد الذي يعلو صوته فوق أي نداء ...

فهي تعني أن يوصف المرء بوطنه وكفى.. فكلنا مصريون ولا نحتاج المزيد للتعريف أوالمزايدة على واجباتنا تجاه هذا الوطن وحقوقنا فيه ...

فعلى الرغم من أن الدين بالنسبة إلى شعوب الشرق الأوسط وبالأخص مصر هو الدافع والمحرك الرئيسي لعجلة الحياه اليومية منذ عهد الفراعنة بل قد يكون منذ بدء الخليقة إلا أن صوت الوطن لم يقف يوماً أمامه حائل والأمثلة كثيرة من الحرب على الهكسوس وطردهم من مصر بتوحيد جميع طوائف الشعب مرورًا بكل العصور وليس بعيدًا عنا ثورة ١٩١٩. وتحالف جميع قوى الوطن أمام المعتدي الإنجليزي وحتى حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة التي اختلطت فيها دماء المصرين بل وتلاحم الرمز لشهدائنا في الجندي المجهول الذي بذل حياته الى آخر قطرة دم ولسنا نعرف أو نهتم بأن نعرف ديانته أو انتماءه الحزبي ....

وإن كانت مصر تتميز بعدم وجود اختلافات عرقية أو دينية كثيرة فحتى اختلاف العقيدة مقترن بوحدة في الأصل والجذور لذلك فإنه من السهل التفاعل مع قضية المواطنة؛ لأنها حياة يومية معاشة لا تحتاج الى الكثير من المصطلحات الأيديولوجية لوصفها أو تعريفها خاصة وإنه في مجال الحقيقة الأخلاقية قد أجمع علماء الثقافة والمؤرخون ورجال الدين — المسلمون والمسيحيون المصريون

والغربيون - الذين عملوا في مصر والمنطقة منذ القرن التاسع عشر ومن منظور اجتماعي للممارسات السلوكية / الاجتماعية المحكومة بتصورات دينية أو بتقاليد يجري تبريرها دينياً أجمعوا على أن ثمة اتفاقاً كاملاً تقريباً بين مسلمي مصر ومسيحييها حول الحقائق الأخلاقية مثل مفهوم الشرف ومفهوم الوعد والتعهد وعلاقات القرابة والجيرة والتصنيف الجنسي (Gender) والملكية والمسئولية الجماعية للعائلة أو للجماعة السكنية وطقوس المناسبات الاجتماعية كالزواج أو الاحتفال بمولد طفل أو حتى في طقوس المناسبات الدينية الشعبية (الموالد الإسلامية والميامر والموالد المسيحية).

لذلك فنحن إذ نطرح هذا الموضوع لأننا نريد مصر وطناً مستقراً تترسخ فية القيم الإنسانية وتتقدم فيه مساحة المشترك على حساب الطائفى، وهى عملية تتطلب إيماناً أصيلاً بهذة المبادئ بإعتبارها مبادئ إنسانية لا صلاح لمجتمع دونها، ولانهضة ولانمو ولاتطور بعيداً عنها .. نحن فى حاجة إلى رؤية تطرح كل القضايا بشفافية كاملة وصولاً إلى رؤية كلية مشتركة تنهض على تكريس قيم المواطنة والمساواة . رؤية تحترم العقائد والمعتقدات الدينية وتقر بمبدأ حرية الرأى والاعتقاد . رؤية تؤمن أن مصر للمصريين وأن قيمة المواطنة تسمو فوق أى اعتبار آخر . إذا تحقق ذلك فأن لبنة راسخة ستوضع فى أساس صلب لمجتمع متماسك يؤمن بقيمة المواطنة ويتطلع إلى دولة مدنية عصرية حديثة.

يعتبر محمدعلي باشا بحق مؤسس الدولة المصرية الحديثة.

رغم كونه - هو نفسه - غير مصري المولد. فمصر هى أقدم دولة ذات حكومة مركزية تكونت في التاريخ. بدأت منذ عصر الملك مينا الذي وحد الأرضين حوالي ٣١٠٠ سنة قبل الميلاد. وبعد حوالي ثلاثة آلاف عام من حكم الملوك الفراعنة. سقطت مصر تحت سيطرة الرومان سنة ٣٠ قبل الميلاد. واعتبر الرومان أن الأرض المصرية صارت ملكية خاصة للإمبراطور. يديرها نيابة عنه حاكم يرسله إلى الإسكندرية. وعلى هذا لم يعد المصريون مواطنين في دولتهم. بل صاروا رعايا للإمبراطورية الرومانية. ومنذ ذلك التاريخ فقدت الدولة المصرية وجودها ككيان سياسي مستقل. وأصبحت مصر مجرد إقليم روماني يدفع الضرائب. ويطعم روما من خيرات أرض وادي النيل. فلم تعد هناك حكومة مصرية. ولم يعد هناك جيش مصري. فالحكومة أصبحت رومانية والجيش أصبح رومانيًا وطبقة الملاك والأغنياء صاروا من الرومان أو ممن يستخدمهم الرومان لمعاونتهم. وانحصر دور الرعايا المصريين في زراعة الأرض ودفع الضرائب .

وفي ٦٤٠ وصل عمرو بن العاص إلى مصر وتمكن من هزيمة الروم البيزنطيين. فانتقلت البلاد منذ ذلك التاريخ إلى سلطة الدولة العربية الإسلامية في المدينة المنورة. وظل الوضع السياسي لمصر في ظل الدولة العربية الإسلامية على نفس الحال الذي كان عليه أيام الرومان. وكانت مهمتهم الرئيسية هى زراعة الأرض ودفع الضرائب. ثم انتقلت عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة إلى دمشق في عهد الدولة الأموية و إلى بغداد في أيام الدولة العباسية. بعد

ذلك خضع الإقليم المصري للطولونيين والإخشيديين ثم للدولة الفاطمية وبعدها للدولة الأيوبية. قبل أن يسقط في النهاية في قبضة البكوات المماليك. ورغم أن مصر أصبحت بمثابة مركز رئيسي لكل من الأيوبيين والمماليك. لكنها مع ذلك لم تصبح دولة مصرية لا في حكامها ولا في جيشها. حيث ظلت مهمة الشعب المصري هي زراعة الأرض ودفع الضرائب. وفي النهاية سقطت مصر تحت سيطرة الدولة العثمانية التي دامت سيطرتها حوالي ثلاثة قرون من الزمان.

وبعد حوالي ألف وثمانمائة عام من فقدان مصر لكيانها السياسي وهويتها التاريخية. جاء محمد علي باشا ليخرجها من نطاق إمبرطورية آل عثمان. ويعيدها لتكون دولة ذات كيان مستقل وهوية قومية محددة. وعاد المصريون شعبًا وأمة في دولتهم بعد أن كانوا رعايا لدولة أخرى. ولم يعد الأقباط ذميين كما كانوا في الدولة العثمانية. بل صاروا مواطنين في الدولة المصرية الجديدة. ومنذ ذلك التاريخ تكون جيش من المصريين. الذين عادوا كذلك – بشكل تدريجي – لتولي المناصب الحكومية والإدارية العليا في البلاد. كما جاءت ثورة عرابي باشا سنة ١٨٨٢. ثم ثورة ١٩١٩ التي قادها سعد زغلول. لتؤكد أن المواطنة هي أساس بناء مؤسسات الدولة المصرية الحديثة. وحصل المصريون على دستور سنة ١٩٢٣ الذي نظم ممارسة الحياة السياسية في البلاد. وانتخاب برلمان يتولى تشريع القوانين ومراقبة أعمال الحكومة.

قبل ولاية محمد علي باشا. كان المجتمع المصري ينقسم إلى

شريحتين: الحكام والمحكومين. وتضم شريحة المحكومين جموع المصريين من مسلمين وأقباط. كانوا جميعاً محرومين من تولي الولاية ودخول الجيش. ومن ثم يدفعون كلهم الجزية للمماليك والعثمانيين. ثم استخلصوا جميعاً حكم بلادهم لأنفسهم. ودخلوا مجال السلطة في وقت واحد. بدأ ذلك مع الثورة التي قام بها المصريون ضد الباب العالي في بداية القرن التاسع عشر. وكان عميد الأقباط المدني - جرجس الجوهري - ضمن الهيئة التي نصبت محمد علي حاكماً على مصر عام ١٨٠٥. على ما يروي عبد الرحمن الجبرتي.

تسامح محمد علي باشا

تمتع الأقباط في عصر محمد علي باشا بسياسة التسامح وروح المساواة بين جميع المصريين منذ تولية حكم مصر سنة ١٨٠٥. بدأ محمد علي حكمه باتباع سياسة تسامح ديني. فقضى على التفرقة بين القبطي والمسلم. طالما أن كليهما يستطيعان أن يقدما للبلاد أحسن الخدمات. كما اتجهت سياسة محمد علي إلى مساواة تامة بين المسلمين والأقباط في الحقوق والواجبات. فعين أقباطًا مأمورين لمراكز برديس والفشن بالوجه القبلي وديرمواس وبهجورة والشرقية. كما ألغى محمد علي قيد الزي الذي كان مفروضًا على الأقباط في العصور السابقة. وألغى كل القيود التي كانت تفرض عليهم لممارسة طقوسهم الدينية. فلم يرفض للأقباط طلبًا تقدموا به لبناء أو إصلاح الكنائس. وكان محمد علي

هو أول حاكم مسلم يمنح الموظفين الأقباط رتبة البكوية واتخذ له مستشارين من المسيحيين. وفي عصر سعيد باشا (١٨٥٤-١٨٦٣). تم تطبيق قانون الخدمة العسكرية على الأقباط وألغيت الجزية التي كانت مفروضة على الأقباط من قبل. ودخل الأقباط لأول مرة في سلك الجيش والقضاء. وسافر بعضهم إلى أوروبا كانت النهضة التعليمية لها نصيب الأسد فيها. كما عين سعيد باشا حاكمًا مسيحيًا على مصوع بالسودان.أما الخديو إسماعيل باشا (١٨٦٣-١٨٧٨). فقد طبق نظام المساواة بين الأقباط والمسلمين. وقام بترشيح الأقباط لانتخابات أعضاء مجلس الشورى ثم بتعيين قضاة من الأقباط في المحاكم. فانتشرت روح المساواة بين جميع المصريين في جميع القرى المصرية وتعاون المسلمون والمسيحيون تعاونًا صادقًا من أجل نصرة الوطن.

وبدأ الفكر المصري - ممثلاً في الشيخ رفاعة الطهطاوي - جهده في التعبير عن التجربة المصرية. الذي صدرت كتبه في أيام محمد علي والخديو إسماعيل. وفي كتابه الشهير "مناهج الألباب" يقدم الطهطاوي نصًا مهمًا. يجعل فيه مبدأ المواطنة أساسًا للعلاقات بين المصريين على أساس "الأخوة الوطنية" و"النخوة الوطنية". واستمر الطهطاوي في إصدار مجلة "روضة المدارس". التي كان ينشر فيها الوعي المستنير. وظهر من بين زملاء رفاعة الطهطاوي وتلاميذه مفكرون أقباط مثل تادرس وهبي. وميخائيل عبد السيد.

ثم جاء جيل جديد من المصريين - بعد رحيل محمد علي - الذين تعلموا واستفادوا من مشروعه الثقافي. ليكملوا الطريق ويحددوا

معالم النهضة الحديثة لبلادهم، سواء في مجال الفكر أو في السياسة. وكان أول هؤلاء هو أحمد لطفي السيد، الذي يلقب بأستاذ الجيل. فقد سافر لطفي السيد إلى سويسرا بعد أن درس القانون في مصر، حيث تعلم الفلسفة في جامعة جنيف. وعاد ليصبح أول مدير لأول جامعة مصرية – جامعة القاهرة الآن - في سنة ١٩٢٥، وداعيًا صلبًا للتمسك بالقومية المصرية واستعادة الذاكرة الحضارية للأمة المصرية. ومن أهم ما دعا إليه لطفي السيد من أفكار، كانت فكرة إحياء مصر الفرعونية ولغتها وآدابها وثقافتها، وإعادة تكوين القومية الوطنية على أساس أن «مصر للمصريين». يقول ألبرت حوراني: "كان لطفي كغيره من المفكرين المصريين لا يحدد الأمة على أساس اللغة أو الدين، بل على أساس الأرض، وهو لم يفكر بأمة إسلامية أو عربية، بل بأمة مصرية: أمة القاطنين (على) أرض مصر". (الفكر العربي في عصر النهضة، ص ٢١٦).

هكذا ظهرت فكرة المواطنة مع عودة الدولة المستقلة وظهور فكرة القومية المصرية. فالمواطنة تعني انتماء الأفراد إلى كيان سياسي موحد، وتساويهم في الحقوق والواجبات داخل هذا الكيان. والمواطنة الحقيقية تكفل الحقوق المتكافئة للمواطنين، دون تمييز للمواطن رجلا كان أو امرأة، مسلمًا أو مسيحيًا. فالمواطنة تشير في معناها القانوني إلى أحد أركان الدولة الحديثة وهو "الشعب"، الذي يتكون من مجموعة الأفراد الذين تمارس مؤسسات الدولة ولايتها عليهم ويخضعون لقوانينها. ومن ثم، فإن حدود الجماعة السياسية المصرية تتماثل مع حدود المواطنة المصرية، ويشارك فيها

المصريون دون سواهم. ولهذا نشأ الارتباط الوثيق بين مبدأ المواطنة وفكرة تكافؤ الفرص والحقوق المتساوية. فلا مواطنة بدون مساواة في الحقوق والواجبات بين أبناء الوطن الواحد بغض النظر عن الدين والمذهب والنوع والأصل. وهذا هو جوهر المادة ٤٠ من الدستور المصري الحالي.

سعد زغلول ووحدة عنصرى الأمة

لا شك أن الزعيم المصرى الذي استطاع أن يذيب الحساسيات بين المسلمين والأقباط هو سعد زغلول. الذى حقق هذا التآخى بين عنصرى الأمة المصرية. كانت سنوات ما قبل ثورة ١٩١٩ - ما بين سنة ١٩٠٦ و ١٩١٠ - من أسوأ السنين فيما يتعلق بتأزم العلاقة بين المسلمين والأقباط. فخلال تلك الفترة تأزمت العلاقة بين مسلمي مصر وأقباطها بشكل لم يسبق له مثيل. نتيجة لسياسات الاحتلال البريطاني. وكان سعد زغلول خلال هذه السنوات وزيراً في الحكومات التي تعاقبت على حكم البلاد. ابتداء من وزارة مصطفى فهمي الأخيرة (١٩٠٦-١٩٠٨) ووزارة بطرس غالي (١٩٠٨-١٩١٠) ثم وزارة محمد سعيد منذ ١٩١٠ وحتى استقالة سعد زغلول سنة ١٩١٢. خلال تلك السنوات أتيح له أن يراقب الأزمة ويقف على طبيعتها. أدرك سعد زغلول أن مبادرة الأغلبية بكفالة الشعور بالأمان لدى الأقلية هو الطريق الصحيح لحل الأزمة. فعمل سعد زغلول خلال ثورة ١٩١٩. على تحويل فرقاء الأمس القريب إلى رفاق في الثورة من أجل الوطن. وبينت أحداث الثورة مظاهر الوحدة الوطنية في الحركة

المشتركة للأقباط والمسلمين، حيث كانت القيادة الوطنية — بزعامة سعد زغلول - واعية منذ البداية بأهمية هذه الوحدة، التي باركها ودعمها الشعب كله. "ولعل أروع ما أبرزته هذه المظاهرة الكبرى (في ١٧ مارس ١٩١٩) هو هذه الظاهرة التي سيطرت على الأحداث من اللحظة الأولى، وهي ظاهرة التضامن الوثيق بين المسلمين والأقباط بعد أن تصور الإنجليز أنهم نجحوا في التفرقة بين عنصري الأمة، فإذا بالمفاجأة وكم لثورة ١٩١٩ من مفاجآت، تظهر كيف ساد التلاحم بين المصريين في لحظة - وأصبحت الكلمة التي تتردد على الشفاه "الدين لله والوطن للجميع" وظهرت الأعلام في هذه المظاهرة الكبرى وقد رسم عليها الصليب مع الهلال". (موسوعة تاريخ مصر، لأحمد حسين، الجزء الرابع، ص ١٥٦٧).

وخلال سنوات الكفاح الوطني ما بين ١٩١٩ و١٩٢٤ كان سعد زغلول محاطًا برفاق مخلصين، من بينهم أقباط مشهورون مثل واصف غالي وويصا واصف وسينوت حنا وفخري عبد النور وجورجي خياط ومرقص حنا ومكرم عبيد. وعندما ألقى الإنجليز القبض على سبعة من رفاق سعد زغلول كان من بينهم أربعة أقباط، حاكمتهم سلطات الاحتلال وأصدرت حكماً بإعدامهم في ١١أغسطس١٩٢٢، وهم: حمد الباسل، ويصا واصف، مرقص حنا، واصف بطرس غالي، علوي الجزار، جورجي خياط، مراد الشبريعي. وعندما ربح سعد أول انتخابات حقيقية في تاريخ مصر وألف أول وزارته في يناير ١٩٢٤: عين سعد وزيرين قبطيين في الوزارة، التي كانت تتكون من تسعة وزراء، وهما مرقص حنا وواصف غالي. من هذا يتبين أن سعد زغلول

كان يعمل على إلغاء التعصب عن طريق إشاعة روح الوطنية المصرية. وبث روح الاطمئنان بين الأقباط وجعلهم جزءًا من حزبه. كان المرشح القبطي يرشح في دوائر كلها مسلمون فيتم انتخابه بصرف النظر عن ديانته. عندئذ تواجد الأقباط تواجدًا فعالا على الساحة السياسية سواء أكان في البرلمان بمجلسيه. النواب والشيوخ. أو في مجالات الإعلام والفكر والثقافة والصحافة وكافة وظائف الدولة القيادية وغير القيادية.

كانت ثورة ١٩١٩ مثالا على الوحدة الوطنية التي أفرزت شعارات مثل "الدين لله والوطن للجميع" و"عاش الهلال مع الصليب". وشارك الأقباط في الحياة السياسية بقوة وجرى انتخاب ويصا واصف رئيسًا لمجلس النواب في البرلمان. وكفل دستور ١٩٢٣ المساواة في الحقوق لكل المصريين بصرف النظر عن الدين والجنس واللغة بالإضافة إلى حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية.

وعندما صدر الدستور المصري عام ١٩٢٣. نصت مادته الأولى على أن "مصر دولة ذات سيادة". ونصت المادة ١٢ على أن "حرية الاعتقاد مطلقة" ونصت المادة ١٤ على أن "حرية الرأي مكفولة". كما جاء بالمادة ٢٣ أن "جميع السلطات مصدرها الأمة" و أن "المصريين لدى القانون سواء- وهم متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية. وفي ما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة - لاتمييز بينهم في ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين. وإليهم وحدهم يعهد بالوظائف العامة مدنية كانت أو عسكرية". وهكذا جاء الدستور المصري يجسد المكاسب الوطنية لثورة ١٩. ويكرس

نجاح الكنيسة القبطية في تربية وجدان المنتمين إليها ليشاركوا في حركة بلادهم الوطنية والدستورية.

تعديل الدستور

في خطابه يوم السادس والعشرين من ديسمبر ٢٠٠٦، اقترح الرئيس حسني مبارك تعديل ٣٤ مادة من من دستور١٩٧١. من بين التعديلات التي طالب بها الرئيس مبارك، إدخال مبدأ المواطنة في المادة الأولى من الدستور كأساس تقوم عليه الدولة. ففي الوقت الذي يتعرض فيه عدد من الدول العربية اليوم لعمليات التجريف الاجتماعي والطائفي تحت تأثير أفكار وتوجهات مذهبية وطائفية خاطئة، تقسم أبناء الوطن الواحد علي أساس الدين أو الطائفة أو الأصل أو العرق، صارمن الضروري التأكيد في الدستور علي أن الدولة المصرية تقوم على مبدأ المواطنة، فمصر ستظل وطنًا لكل المصريين، يقوم على العيش المشترك الواحد لكل أبناء الشعب، لذلك كان من الطبيعي أن يحظي الاقتراح بتعديل المادة الأولي من الدستور بشأن مبدأ المواطنة بدعم كافة الأحزاب المصرية وتأييدها.

وبالفعل تم تعديل المادة الأولي من الدستور المصري في عام ٢٠٠٧، بحيث جاء نصها : "جمهورية مصر العربية دولة نظامها ديمقراطي يقوم على أساس المواطنة". وتصبح الخطوة التالية هي محاولة تطبيق وتفعيل هذا النص، بحيث يتم التعامل مع المواطنين على أساس المساواة في الحقوق والواجبات، وكذلك في

الفرص والمناصب. كما يصبح من الضروري على وسائل الثقافة والإعلام نشر مفهوم المواطنة بين أبناء شعبنا.

الفصل الثامن
الإسلام والعالم بعد سقوط دولة الخلافة

الشرك والكفر وأهل الكتاب

هناك ظاهرة خطيرة من التطرف الإسلامي انتشرت في السنوات الأخيرة في بلادنا. لم تكن موجودة بها من قبل. إذ ظهرت مؤخرًا بعض الأصوات التي تعتبر أن غير المسلمين - من المسيحيين واليهود - كفارًا أو مشركين. ورغم عدم وجود مثل هذه الآراء في بلادنا منذ ظهور الإسلام قبل أكثر من ١٤ قرنًا. فقد تطورت مؤخرًا هذه الظاهرة الغريبة بشكل مقلق. حتى بدأ بعض الشباب يرددون هذه الدعاوى الباطلة. بل إن الأمر لم يقتصر على هذا. فقد سارت بعض المدارس - وسار بعض المدرسين - في ذات المسار. عن طريق الإيحاء للتلاميذ الصغار بهذا الادعاء الذي يتعارض تمامًا مع التعاليم الإسلامية. ويخالف آيات القرآن الكريم بشكل صريح كما جاء فى مختلف فصول هذا الكتاب.

وما هذا الادعاء الجديد إلا مغالطة كبيرة لا تتفق مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف. فالنصارى واليهود — بحسب شريعة

الإسلام - هم من أهل الكتاب الذين يشتركون مع المسلمين في عقيدة التوحيد. والتأكيد على عبادة إله واحد. فالمشركون هم الذين يعبدون آلهة متعددة وأصنامًا. ولا يؤمنون بوحدانية الإله. بينما يتبع أهل الكتاب من النصارى واليهود رسالات الأنبياء السابقين وهم يؤمنون بالله مثلنا تمامًا. وإن اختلفوا عنا في تفاصيل أخرى.

لذلك دعونا نبحث في القرآن الكريم عن إجابة لهذه القضية ...

من يتأمل الناس يجد أن القرآن قد صنفهم في ثلاث فئات:

١ ـ مؤمنين بما أنزل على (محمد صلى الله عليه وسلم) "الذين آمنوا".

٢ ـ أهل كتاب عندهم ناموس عقيدي وأخلاقي وتشريعي. من أتباع ديانات سابقة علي الإسلام "الذين هادوا والصابئون والنصارى والمجوس".

٣ ـ دنيويين مشركون "الذين أشركوا".

والله يقول في شأنهم جميعًا: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [الحج: ١٧].

وعلى العكس من هذه التعاليم الدخيلة. نفى الله سبحانه وتعالى صراحة أن يكون النصارى الذين اتبعوا المسيح كفارًا. حيث جاء في كتابه العزيز:(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ

إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ (أي المسيحيين والنصارى) فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ). [آل عمران: ٥٥] (وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) [الحديد: ٢٧]. فقد جعل الله في قلوب الذين اتبعوا عيسى - من النصارى والمسيحيين — الرحمة. ولهذا أرسل النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أتباعه من المسلمين الأوائل إلى بلاد الحبشة النصرانية. حيث عاشوا المسلمون بين إخوتهم من المسيحيين الأحباش هناك في أمان ورحمة بعيدًا عن بطش قريش وعذابهم.

كما أكد القرآن الكريم كذلك على معنى مشاركة النصارى واليهود مع المسلمين في عبادة إله واحد. في الآية ٦٤ من سورة آل عمران: (قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً). وهذا هو المعنى الذي يؤكده تاريخ الدولة الإسلامية. فقد أعطى الخليفة عمر بن الخطاب الأمان لأهل الكتاب من مسيحيين ويهود. في جميع البلدان التي فتحها المسلمون. وحفظ لهم الحق في ممارسة معتقداتهم وطقوسهم الدينية وحماية كتب العبادة وأبنيتها ومنشآتها. وهذا ما كان ليحدث لو كان هؤلاء كفارًا أو مشركين.

كما أن القرآن الكريم أباح زواج المسلم من نساء أهل الكتاب. ولكنه حرم هذا الزواج من الكفار وهذة الإباحة تعنى أن أهل الكتاب من النصارى ليسوا كفاراً .

ولأن بعض دعاة الإسلام السياسي في عصرنا الحديث صاروا يقدمون تعاليم جديدة باسم الإسلام. وبدلا من دعوة القرآن إلى كلمة سواء بيننا وبين أهل الكتاب. صاروا يضعون الإسلام والمسلمين في مواجهة وصراع معهم. أصبح من الضروري علينا الرجوع إلى بداية التاريخ الإسلامي ونصوص القرآن الكريم. للتعرف على حقيقة العلاقة بين ديننا الحنيف وبين المسيحيين من أهل الكتاب.

الإسلام عقيدة وعبادة

بينما يعتقد البعض هذه الأيام أن اختطاف الطائرات واحتجاز الرهائن ونسف المباني وقتل السائحين هى عمليات للجهاد ترتكب دفاعًا عن الإسلام. فإن الغالبية العظمى من المسلمين تنظر إلى هذه الأفعال على أنها جرائم ترتكب إثمًا باسم الدين الاسلامي الحنيف وتسيء إلى المجتمع الإسلامي بأجمعه. ومع عدم وجود خلاف بيننا على الطبيعة الدينية للإسلام. إلا أن جوهر الخلاف - في اعتقادي - يرجع إلى أن البعض منا يعتبر الإسلام بمثابة عقيدة سياسية وليس عقيدة دينية. وفي مصر. رفضت الحكومة السماح بتكوين أي حزب سياسي على أساس الدين. حتى لا تختلط الأمور وتنتشر الفتنة بين المواطنين. وحتى ندرك الطبيعة الدينية للإسلام يكون علينا الرجوع إلى القرآن الكريم. فهو المصدر الرئيسي الذي يمكننا الاستدلال منه عن المقصود من الحديث عن "الإسلام". وهل هو عقيدة دينية أم نظام سياسي.

ويدلنا القرآن على أن الإسلام دين وعقيدة. فقد جاء بآخر آية تلاها الرسول في حجة الوداع في العام العاشر من الهجرة. وهي الآية ٣ من سورة المائدة: (... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً...). كما تؤكد الآية ١٩ من سورة آل عمران الطبيعة الدينية للإسلام: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ).

بل إن القرآن يدلنا كذلك على أن الإسلام لم يكن دينًا جديدًا عندما نزل على الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم). بل هو الاسم الذي أطلق على ديانات التوحيد التي آمن بها الأنبياء والرسل منذ البداية. فبينما تقول الآية ٦٧ من سورة آل عمران (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانِياً وَلَكِن). فإن الآية ١٠١ من سورة يوسف تخبرنا بأن دعاء الصديق حفيد إبراهيم الأكبر كان هو. رب: "... توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين". ولم يكن الإسلام هو دين الأنبياء فحسب. بل إن أتباع عيسى المسيح كانوا هم أيضًا مسلمين (بالمعنى الواسع للكلمة) بحسب ما جاء في الآية ١١١ من سورة المائدة: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ).

ومن المؤكد أن الإنسان عرف الدين منذ عصوره الهمجية السحيقة. ويكاد تاريخ الديانات يرجع إلى تاريخ ظهور أول تنظيم للجماعات البشرية. فقد شعر الإنسان منذ البداية بحاجته إلى عقيدة تفسر له ما لم يستطع إدراكه من أسرار العالم المحيط به. ولأن الإنسان تنتهي حياته بالموت. فهو في حاجة إلى نظام ديني

يفسر له ظاهرة الموت التي تتحكم في مصيره. وينظم له طريقة السلوك السليم التي يكون عليه اتباعها: لإرضاء القوى الخفية التي تسيطر على عالمه. وبالرغم من أن الإنسان كان منذ أقدم عصوره متدينًا مدركًا لوجود قوة إلهية خفية. إلا أنه في إدراكه لوحدانية الخالق قد مر بمراحل تدرج فيها الوعي البشري مع تدرج المجتمع الإنساني. في سلم التطور والارتقاء الحضاري.

ويفسر الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه عن "الله" كيفية تدرج الإنسان - منذ أقدم العصور - في التوصل إلى إدراك معرفة الله وإدراك وجوده. وكيفية ظهور فكرة التوحيد مع بداية تكوين الممالك الكبيرة وتطورها حتى تكاملت في الفكر الإسلامي. ويذهب العقاد إلى أن المعرفة الإنسانية لها ثلاثة مصادر:

الحواس: وهي طريق المعرفة الحسية التي تتعلق بالعالم المادي وهي مصدر المعرفة العلمية.

الحدس: وهنا يلعب العقل دورًا أساسيًا في الوصول إلى استنتاجات عقلية مبنية على المنطق. وهذا هو الطريق لإدراك غير المحسوس وما وراء الطبيعة وبالتالي إلى المعرفة الروحية والوجود الإلهي.

التصوف: فإن نكران العالم المادي وتطلع النفس إلى الذوبان في الكيان الروحي لما وراء العالم المادي. يؤدي إلى إدراك صوفي للطبيعة الإلهية.

والإسلام – مثله في هذا مثل الأديان الأخرى – يقوم على عنصرين أساسيين هما العقيدة والعبادة. وبالنسبة للعقيدة جاء بالآية ٢٨٥ من سورة البقرة: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ). كما تشير الآية ٦٢ من سورة البقرة إلى أن الإيمان يشكل عنصرًا جوهريًا في جميع العقائد التوحيدية: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ). (سورة البقرة الآية ١٣).

وإلى جانب الإيمان فإن الدين يتطلب من أتباعه العبادة كذلك: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ). (سورة البقرة الآية ٢١).

أما شعائر العبادة الشعائر الظاهرة في الإسلام كما فرضت على المسلمين جميعًا – بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله – فهي الصلاة والزكاة: (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ). [البقرة: ٤٣]. وكذلك الصيام: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ). [البقرة: ١٨٣]. والحج: (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ....). [البقرة ١٩٦].

ونحن نلاحظ إلا أن أنصار الإسلام السياسي أصبحوا الآن يقفون

في الواجهة التي تتحدث باسم الإسلام إلى باقي شعوب العالم، مما أدى إلى ظهور نظريات صراع الحضارات التي تقدم الإسلام على أنه الخطر الذي بات يهدد الحضارة الغربية. وخطورة هذا الاتجاه هي في أنه يحرم المسلمين من الشعور بالطمأنينة الروحية، ويجعلهم يشعرون بأنهم - رغم إيمانهم العميق وممارستهم للشعائر الدينية المفروضة عليهم -- فإن دينهم ما زال ناقصًا بسبب عدم ممارستهم العمل السياسي والعسكري. ثم إن هذا الاتجاه يفتح المجال أمام الفتن والأحزاب، التي تمارس السياسة باسم الإسلام، كما حدث في بداية ظهور الدولة الإسلامية. وبعد هذا يصبح علينا مواجهة كل شعوب العالم كأعداء متقاتلين، بدلا من التعاون مع باقي الشعوب لبناء مستقبل أفضل للبشر أجمعين. إن قوة الدعوة الإسلامية ليست في كمية المدافع والمتفجرات التي يمتلكها المسلمون، ولا في عدد القتلى الذين يسقطون أمام هجمات المقاتلين، وإنما في قوة الإيمان والقدرة على إقناع الآخرين بصدق دعوتنا، وهذا هو السلاح الوحيد الذي استخدمه رسول الإسلام لنشر دعوته.

الخاتمة

بعد هذا الاستعراض السريع لما يظهر التقارب بين الإسلام والمسيحية، نرجو أن نكون قد ساهمنا في توضيح صور الإسلام السمحة وتعاليمه المتميزة، وخاصة وصاية الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأقباط مصر وشعبها. كما نرجو أن يساعد هذه الفهم الصحيح للدعوة الإسلامية، على تحقيق السلام الداخلي والأمن الاجتماعي في مصرنا الحبيبة. فليس هناك في القرآن أو السنة، ما يعتبر القبط كفارًا. وقد أخذ الرسول مريم القبطية التي أنجبت له إبراهيم آخر أبنائه. كما كانت جدته هاجر من بنات وادي النيل.

وفي ظل المجتمع المدني الذي نعيشه الآن، والذي يدعو إلى تأكيد فكرة المواطنة، والمساواة بين المواطنين – مسلمين ومسيحيين – في الحقوق والواجبات، يصبح من واجب المؤسسات المدنية والدينية القيام بدورها والوقوف في وجه كل من يحاول الإخلال بأمن الوطن وسلامته. كما يكون على المؤسسات التعليمية والإعلامية، شرح حقيقة العلاقة بين الإسلام والمسيحية وإعادة النظر في البرامج

الدراسية. التي يمكن أن تخالف مفهوم السماحة في العقيدة وتكافؤ الفرص بين المواطنين. ويكون على رجال الدين وأهل الفكر في مجتمعها الوقوف في وجه أية محاولة لنشر الفتنة بين أبناء شعبنا. وتوعية الشباب بخطورة الأفكار الهدامة. عن طريق التأكيد على المبادئ الصحيحة للدين الإسلامي. فالإسلام ينادي بحرمة النفس الإنسانية — لجميع البشر وليس للمسلمين وحدهم — ويرفض ترويع الآمنين.

كما أن المساجد أيضاً يجب أن تلعب دورًا مهمًا فى القضاء على غلو الفكر فلماذا لا يسهم المسجد فى توعية الشباب والنساء بالأفكار الهدامة وخطورتها فيعلمهم تقبل الفكر الآخر. والأهم من ذلك يعلمهم المبادى الدينية الصحيحة وأن حرمة قتل النفس الواحدة كحرمة قتل الناس جميعاً. وإن الإسلام يرفض ترويع الآمنين سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين . وقد نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن ترويع الإنسان لأخيه الإنسان ولو عن طريق الفكاهه. كما يجب على رجال الكنائس المصرية كذلك. المساهمة في توعية المواطنين وتدعيم قيم المواطنة بين أبناء شعبنا من الأقباط. حتى يعيش الجميع في سلام كل منهم ينال حقوقه ويؤدي واجباته تجاه الوطن. كما ورد في تعاليم السيد المسيح **"اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله"**.

- لقد بلغ تعداد الشعب المصري ما يقارب ٨٠ مليوناً. وهو ما يعني أننا لو استطعنا استخدام هذه الطاقة البشرية الهائلة في بناء مصر الحديثة — دون التفرقة بين عقيدة أو ديانة — فسوف

نبني صرحًا كبيرًا، يعيش فيه المصريون هانئين. فقد شارك أقباط مصر في كل المعارك – جنباً إلى جنب مع إخوانهم من المسلمين – في كل الثورات ضد اللاستعمار وكل معارك التحرير والدفاع عن الوطن. كما ساهم الجنود والضباط الأقباط في حرب أكتوبر التحريرية، وكان واحد منهم هو أول من ابتكر وسيلة تحطيم خط بارليف الإسرائيلي الحصين، وكيفية تنفيذها وكافأه الرئيس السادات بتعيينه رئيس لشركة نقل وقام قبطي آخر برفع علم مصر فوق سيناء بعد اقتحام خط بارليف الشهير. وقد كافأه الرئيس أنور السادت بعد ذلك حيث عينه محافظاً لسيناء. كما صار الدكتور بطرس غالي وهو أول عربي يتم اختياره سكرتيراً عاماً لهيئة الأمم المتحدة، بعد أن رشحته الحكومة المصرية لهذا المنصب. وفي لندن كان الدكتور مجدي يعقوب أول طبيب مصري يحصل على لقب سير (Sir) من ملكة بريطانيا.

من ينظر إلى ما يذاع وينشر في بعض وسائل الإعلام، يعتقد أننا مشغولون كثيراً بقضايا هامشية زائفة، في محاولة لقراءة ضمائر الناس وقلوبهم وإصدار الأحكام على الناس، ولا نترك الحساب في مثل هذه الأمور لصاحب الأمر ورب الحساب، ألا وهو الله عز وجل، صرنا منشغلين عن القضايا الحيوية المهمة التي سوف تحدد مصير شعبنا ومستقبله، مثل التعليم والصحة والسكن وتوفير فرص العمل، بالبحث في ضمائر الناس والشك في معتقداتهم وأدى ذلك إلى هجرة ملايين الأقباط إلى الخارج ومصر أولى بهم وبكفائتهم وخدماتهم.

وإننا نرفض فوضى الحديث عن الدين وما تبثه الفضائيات من آراء غريبة من شأنها تسطيح فكر الشباب وبالتالى يسهل استقطابه لأى فكر منحرف أو متطرف كقول الآية الكريمة فى سورة الحج (آية: ٣) : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ) والآية ٢ فى سورة المائدة (وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) .

مصر هى أم الدنيا. هذا هو القول الذي يردده الناس جميعاً في كل أنحاء الدنيا. الذين يقدرون ما قدمته مصر وشعبها للحضارة البشرية من قيم إنسانية ومعارف. حتى السفير الأمريكي في مصر. ردد هذا القول في كلمته التي ألقاها في مؤتمر المعلمين الأمريكان والأجانب المقيمين في مصر. وحثهم على الاستمتاع بوجودهم فوق هذه الأرض الطيبة التي هى بلدنا. ولهذا فنحن مسئولون — مسلمين وأقباطاً — على تدعيم هذا القول عن بلادنا الحبيبة. وما زال في وسعنا تقديم الكثير لحضارة البشر كما قدم أجدادنا من آلاف السنين. فمصرنا هى البلد الوحيد في العالم. التي جاء ذكرها في جميع الكتب السماوية. التوراة والإنجيل والقرآن. وقد ورد على لسان الرب في سفر أشعيا من العهد القديم: "مبارك شعبي مصر" (الإصحاح ١٩. الآية ٢٥) وفي إنجيل متى يقول الرب: "من مصر دعوت ابني". (الإصحاح ٢. الآية ١٥) كما قال الله سبحانه وتعالى في سورة يوسف القرآنية: (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين). (الآية ٩٩).

وبعد صدور التعديلات الدستورية الأخيرة في ٢٠٠٧ والتي

أكدت على مبدأ المواطنة في المادة الأولى منه. أصبحت قضية ترسيخ هذه المبدأ من أول قضايا وطننا التي يجب التركيز عليها، حتى تكون دافعاً لتنمية المجتمع والاقتصاد الوطني ورفع مستوى المعيشة. كانت مصر طوال تاريخها تؤمن بأن الدين لله والوطن للجميع، حتى ظهرت في السنوات الأخيرة بعض الجماعات التي تعارض مبدأ المواطنة، وتفرق بين المصريين بحسب عقيدتهم الدينية، مما يهدد الوحدة القومية والأمن الاجتماعي في بلادنا. ورغم هذا الاتجاه المتطرف، فإن غالبية الشعب المصري ترفض هذه التيارات مما يدعم ثقتنا في مستقبل تذوب فيه التيارات، كما حدث لكثير منها في التاريخ. وستبقى مصرنا صامدة قوية في وجه كل التهديدات، بقلوب وعقول أبنائها جميعًا مسلمين وأقباطاً.

ونحن نرجو أن يساهم مفكرونا الكبار وعلماء الدين الأجلاء في شرح هذه القضية القومية، فهم يدركون خطورة محاولة بذر عناصر التفرقة بين مواطنينا، كما نشاهده في بعض البلدان من حولنا، والتي صارت تعاني من الصراعات الداخلية بسبب التفرقة على أسس دينية وعرقية. وقد حدث منذ سنوات، عندما التقى الرئيس الراحل أنور السادات بالبابا شنودة الثالث في كاتدرائية الأقباط الأرثوذكس، أن طلب كل من الرئيس السادات وقداسة البابا أن يشترك الأزهر الشريف مع الكنيسة معاً في إصدار كتاب يتم تدريسه في مدارسنا، يتحدث عن العلاقة المتينة بين الإسلام والمسيحية. وقد تحمس الرئيس السادات كثيراً لهذه الفكرة، التي نتولى الآن تنفيذها من خلال هذا الكتاب.

وفي الظروف السياسية المضطربة حالياً في منطقتنا. حان الوقت لتكون قضية المواطنة والسلام الاجتماعي في بلادنا. على رأس اهتمام كتابنا ومفكرينا. الآن بعد أن تسبب حفنة صغيرة من المتطرفين الجهاديين في نشر صورة سيئة عن الدين الإسلامي الحنيف في جميع أنحاء العالم. أصبح من الضروري توضيح مبادئ الإسلام السمحة لكل الناس. وهذا هو السبب في تقديم هذه الكتاب الآن. عسى أن يساهم في تغيير المعادلة وتقديم الصورة الحقيقية للإسلام. تأكيداً لما جاء في سورة الأنبياء: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)**. (الآية ١٠٧) فلم تخص الرحمة الإلهية هنا جماعة معينة. بل الناس أجمعين. كما جاء في الحديث الشريف **"من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة"**. (ابن مسعود. جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير للإمام السيوطي. الجزء السادس. الحديث رقم ٢٠٣٨) هذا المعنى جاء متطابقاً مع ما ورد في سورة البقرة: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ). (الآية ٦٢).

فالتدين هو العلاقة الشخصية بين الإنسان وخالقه عن طرق الدين الذى يعتنقه هذا الانسان والتدين بمفهومه العام هو سلاح ذو حدين إن جاز التعبير فإذا فهم بالمعنى الأصلى له فأنه يصبح الطريق الوحيد والآمن للبشر فى الوصول والتواصل مع الله وبالتالى فأنه يوحد بين المؤمنين مهما اختلفت عقائدهم وانتمائتهم الدينيه

ويقرب المسافات الجدلية بين المتخالفين فى الرأى مما يؤدى فى النهاية إلى تأكيد المثل العليا فى الحياة بصفة عامة والمجتمع الإنسانى بصفة خاصة كالحب والخير والعدل . وإن لم يفهم بالمعنى الصحيح فإنه يمثل السبب الرئيسى للأحقاد الطائفية بين المتخالفين فى الديانات والعقائد .

فالتقارب بين الأديان يبقى محدودًا بعض الشيء لوجود بعض النقاط الأساسية والجوهرية والحيثيات والتى تفرض على الإنسان رؤيه خاصة تؤدى فى النهاية إلى عشق هذا الدين وعدم تنازله أو حتى مساومته فيما يعتقده فى دينه. فمعتنقوا أى دين لهم من الأسباب والرؤى ما يجعلهم يعتقدون أن دينهم أرقى وأعمق بل وأصدق من الأديان الأخرى. فالمؤمن المتعمق والباحث فى دينه لا يسمح أو يقبل بل ويستشيط غضباً إذا انتقده معتنق دين آخر وهذة هى فطريه العلاقة بين الإنسان والدين . ومثل ذلك مثل علاقة الأم بطفلها فقد تعاقبه إن هو أخطأ ولكن لا تسمح للغرباء بفعل هذا وأن كان قد أخطأ ابنها فعلاً. فلابد للإنسان من قبول الطرف الآخر بذاته كما هو وليس محاولة تغييره أو استمالته.

أحمد عثمان

المراجع

- السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق الدكتور محمد فهمي السرجاني. الجزء الأول. المكتبة التوفيقية.

- فتوح مصر وأخبارها. لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبدالله ابن عبد الحكم. طبع بمطبعة الناشر "بريل". في مدينة ليدن بهولندا. سنة ١٩٢٠.

- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الجزء الأول. دار إحياء الكتب العربية. ١٩٠٦.

- أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية المماليك. الدكتور قاسم عبده قاسم. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. ٢٠٠٣.

- أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول. الدكتور سلام شافعي محمود. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٥.

- موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية. المجلد الأول. توحيد وأنبياء. دار الكتاب العربي. ١٩٧٠.

الفهرس

الصفحة

مكتبات البيع والتوزيع

أ - القاهرة

مكتبة المعرض الدائم
كورنيش النيل - رملة بولاق
ت : سويتش ٢٥٧٧٥٣٦٧
من ٩ ص: ٤م (صيفا - شتاء)

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ ش٢٦يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨
من ٩ ص: ٧م (شتاء)
من ١٠ص: ٨م (صيفا)

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ش٢٦يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١
من ٩ ص: ٧م (شتاء)

مكتبة شريف
٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢
من ٩ ص: ٧م (شتاء) من ١٠ص: ٨م (صيفا)

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥
من ٩ ص: ٧م (شتاء) من ١٠ص: ٨م (صيفا)

مكتبة الحسين
مش الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧
من ٩ ص: ٧م (شتاء) من ١٠ص: ٨م (صيفا)

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان - السيدة زينب
من ٩ ص: ٧م (شتاء)
من ١٠ص: ٨م (صيفا)

مكتبة ١٥ مايو
خلف مبنى جهاز مدينة ١٥ مايو - حلوان
ت : سويتش ٢٥٥٠٦٨٨٨
من ٩ ص: ٢م (صيفا - شتاء)

مكتبة ساقية عبدالمنعم الصاوى
الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو من أبو الفدا
ت : ٢٧٣٦٦١١٧٨ - ٢٧٣٦٨٨٨١

ب - الجيزة

مكتبة الجيزة
ش مراد - ميدان الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١
من ٩ ص: ٧م (شتاء)
من ١٠ص: ٨م (صيفا)

مكتبة جامعة القاهرة
الجيزة - بجوار كلية الإعلام بالحرم الجامعى
ت : ٢٥٧٢٩٥٨٤
من ٩,٣٠ ص: ٣م

مكتبة رادوبيس
ش الهرم - الجيزة - محطة المساحة
ت : ٢٧٣٦٦١١٧٨ - ٢٧٣٦٨٨٨١
من ١٠ ص: ٨ م (صيفا - شتاء)

مكتبة أكاديمية الفنون
مبنى أكاديمة الفنون ش الهرم
ت : سويتش ٣٥٨٥٠٢٩١
من ٩ ص: ٢م (صيفا - شتاء)

جـ - الإسكندرية

مكتبة الإسكندرية
٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥
من ٩ ص: ٢م (شتاء) من ١٠ ص: ٨م (صيفاً)

د - محافظات القناة

مكتبة الإسماعيلية
الإسماعيلية : التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦ مدخل (أ)
ت : ٠٦٤/٣٣٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس
الإسماعيلية: مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة - الجامعة الجديدة
ت : ٠٦٤/٣٨٢٠٧٨
(صيفاً - شتاء)

مكتبة بورفؤاد
بورسعيد: بجوار مدخل الجامعة
من ٩ص: ٨م، ٢م، ٧م (شتاء)
من ٩ص: ٨م، ٢م، ٧م (صيفاً)

هـ - محافظات الوجه القبلى

مكتبة أسوان
السوق السياحى - أسوان
ت : ٠٩٧/٣٠٢٩٣٠
من ٩ ص: ٣م (صيفاً) من ١٠ص: ٨م (شتاء)

مكتبة أسيوط
٦٠ ش الجمهورية - أسيوط
ت : ٠٨٨/٣٢٢٠٣٢
من ٩ ص: ٤م (صيفا) (شتاء)

مكتبة المنيا
١٦ ش خصيب - المنيا
ت : ٠٨٦/٣٦٤٤٥٤
من ٩ص: ٨م: ٥م، ٨م (شتاء)
من ١٠ص: ٣م: ٦م، ٩م (صيفا)

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)
مبنى كلية الأداب - جامعة المنيا
ت : ٠٨٦/٣٦٤٦٥٦
من ٩ ص: ٤م (صيفا - شتاء)

و - محافظات الوجه البحرى

مكتبة طنطا
ميدان الساعة - طنطا
ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤
من ٨ ص: ٢م : ٥م ، ٨م (صيفاً - شتاء)

مكتبة المحلة الكبرى
ميدان المحطة - المحلة
من ٩ ص: ٤م (صيفاً - شتاء)

مكتبة دمنهور
ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور
من ٩ ص: ٤م (صيفا - شتاء)

مكتبة المنصورة
٥ ش الثورة - المنصورة
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩
من ٩ص: ٢م: ٥م، ٨م (شتاء)
من ١٠ص: ٣م: ٦م، ٩م (صيفا)

مكتبة منوف
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية ،جامعة منوف
ت : ٠٤٨/٦٦١٣٣٤
من ٩ ص: ٣م (صيفاً - شتاء)

مكتبات ووكلاء
البيع بالدول العربية

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة - بيروت - ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص. ب : ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيروت - الفرع الجديد - شارع الصيداني - الحمراء - رأس بيروت - بناية سنتر ماريا
ص. ب : ١١٣/٥٧٥٢
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع - سوريا - دمشق - شارع كرجيه حداد - المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦ - الجمهورية العربية السورية

تونس

المكتبة الحديثة - ٤ شارع الطاهر صفر - ٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية .

المملكة العربية السعودية

١ - مؤسسة العبيكان - الرياض (ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - تقاطع طريق الملك فهد مع طريق العروبة - هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨ .

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية - شارع الستين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة : ٢١٤٨٧ - ت : المكتب: ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨.

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية - ص. ب: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - ت: ٤٥٩٣٤٥١.

٤ - مؤسسة عبد الرحمن السديرى الخيرية - الجوف - المملكة العربية السعودية - دار الجوف للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجوف - هاتف: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع
ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازورى العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +
تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.

طبع بمطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



القاهرة - جمهورية مصر العربية - كورنيش النيل - رملة بولاق
ص. ب: ٢٣٥ - الرقم البريدى ١١٧٩٤ رمسيس
ت: ٢٥٧٧٥٢٢٨/ ٢٥٧٧٥٠٠٠ فاكس: ٢٥٧٥٤٢١٣ (٢٠٢)

www.gebo.gov.eg/Email:info@gebo.gov.eg

هذا الكتاب

هو واحد من موضوعات الساعة، لأنه يتصدى للعلاقة الوثيقة بين المسيحية والإسلام، وهى علاقة أكدتها الكتب المقدسة وعبر عنها الأنبياء والرسل حتى استقرت فى وجدان أهل المشرق وإن لم يتفهمها بعض أبناء الغرب ممن لم يتعمقوا فى فهم رسالة الأديان ولم يتابعوا تجربة التعايش بين المسلمين والمسيحيين فى بلد مثل مصر، حيث ترتفع المآذن والأجراس على ضفاف النيل الخالد فى توحد وشموخ لا ينال منهما غزاة أو بغاة. وواقع الأمر إن الإسلام الذى جاء بعد المسيحية قد أعطاها قدرها الكامل واحترامها الأكيد.



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥ جنيهات

ISBN# 9789774207173
6 221149 011076